يوميات الرحالة
فريدريك هورنمان

الرحلة من القاهرة الى مرزق

عاصمة فزان

عام ١٧٩٧



تعريب
مصطفى محمد جوده

مكتبة الفرجاني
طرابلس - ليبيا
١٩٦٨

يوميات الرحالة
فريدريك هورنمان



يوميات الرحالة
فريدريك هورنمان

الرحلة من القاهرة إلى مرزق

عاصمة فزان

عام ١٧٩٧

تعريب
مصطفى محمد جوده

مكتبة الفرجاني
طرابلس - ليبيا
١٩٦٨


دار الكتب
إدارة التزويد

كلمة المترجم

كتب التاريخ كالخمر ، كلما ازدادت قدماً ازدادت قيمة . وهـــذا الكتاب الذي تقدمه (مكتبة الفرجاني) للقــارىء العربي لأول مرة يكشف لنا صوراً تاريخية عديدة كانت باهتة من قبل في مخيلتنا ، ورغم صعوبة الكتاب والأسلوب الانجليزي القديم الذي كتب بـه والذي كان سائداً ابان نشره ، فقد حاولت جهدي ان اعرض للقارىء العربي بصفة عامة والقارىء الليبي بصفة خاصة .. اقول حاولت ان أعرض كل مـا دار بذهن كاتبه وهو يتعرض لوصف تضاريس المنطقة تارة وهو يتصدى لوصف تقاليد شعبها تارة أخرى ..

ونكاد نعيش مع الكاتب صورة حية لفزان ، وكأني بالقارىء يتجول معي في شوارعها ودروبها ، ونكاد سوياً نشم رائحة ترابها ونسمع الضجيج ، ضجيج موكب السلطان وافراد بلاطـه وألكاليجوما والكاليدياما ونكاد نعيش معاً ليلة من امسياتها مع « سيدي المنتصر » وانغام الربابه وصخب الدفوف وراقصات « الكادنكا » .

وخلال الطريق من القاهرة إلى سيوه ومن اوجله إلى زويـــله ومن شياشه والجغبوب إلى تمـه وجبال الهاروج السوداء والبيضاء ووحشتهـا

« وحميره » وتراغن « وسيدي بشير » ومرزق خلال هـــذا الطريق الطويل لا نمل .

ويضم الكتاب بين دفتيه تعليقات كتبهـــا سير « ويليام بارنج » و « ميجور رينيل » ناقشا فيها كثيراً من الحقائق التي عرضها هورينمان بناء على معلومات تاريخية مستقاة من كتابات « هيرودوت » و « بليني » و « ديودورس » و « كورتيس » و « بطليموس » و « بوسانياس » والرحالة المحدثين امثال « دبلسيل » و « دانفيـــل » و « براون » و « جنرال اندرويس » و « بيوفوي » والمؤرخين العرب مثـــل « الإدريسي » و « أبو الفدا » .

ويقدم لنا الكتاب فضلاً عن ذلك درساً مفيداً في جغرافية المنطقة تغيرت على أثره خريطة افريقيا كما يتضح لنا من الخرائط المرفقة .

احس بالراحة بعد مجهود مضني وأنا أترك الكتاب بين يدي القارىء عله يجد فيه شيئاً جديداً .

المترجم

مصطفى محمد جوده

مقدمة

تكونت في عام ١٧٨٨ جمعية تهدف إلى اكتشاف قلب افريقيا ، واختارت هذه الجمعية لتنفيذ أهدافها العريضة أساليب حكيمة وواعية .

وقد كان تقدم الجمعية مرده إلى أسلوبها الصائب الذي اختارته ، وروح المثابرة التي انتهجتها . ومنذ عام ١٧٩٨ استطاعت أن تعتمد في رسم خططها على بيانات مصدرها الزيارات الفعلية والتجارب . ولقد أفاض محضر جلساتها الذي طبع عامي ١٧٩٠ ، ١٧٩٢ في عرض تقارير مفصلة عن مجاهل أفريقيا ، كما وردت على لسان الحكام الانجليز والزنوج وتجار البربر وغيرهم ممن سافروا مع قوافل الحج ما بين مكة ومختلف المراكز الاسلامية النائية في أفريقيا .

لقد كانت هذه التقارير آنذاك مشوقة ومفيدة للغاية ، ووفرت الدوافع للقيام بأبحاث أخرى كما أنها فتحت آفاقاً جديدة أمام التجارة والبحث العلمي لدراسة أحوال المجتمعات ورسم صورة دقيقة لخصائصها في منطقة تبلغ ربع الكرة الأرضية كانت مجهولة تماماً .

وكانت لهذه التقارير نتائج أبعد إذ أنها أضاءت الطريق وسهلت الوسائل للتحقق من صدق البيانات وقياس أهميتها كنتيجة للزيارات الفعلية والتجربة .

وهل يمكن أن نعتمد على أقوال الرواة .. انهم بالطبع يتحدثون عما شاهدوه أو سمعوا عنه وإذا سلمنا بأنهم جهلة وسذج وليسوا على دراية كافية فإن ذلك يجعلنا نتردد في الاعتماد على أقوالهم .

أما بالنسبة للروايات التي يتفقون عليها فهي تستحق منـــا الاهتمام والتأمل فهي ولا شك تعطي فكرة عامــة عن المجتمع وتوفر الأساس الذي يمكن الاعتماد عليـــه في عمليات التخمين والاستنتاج ، فيما يتعلق بالأبحاث التي يعتزم القيام بها في المستقبل .

وعندما نفكر فيما يقوله الرواة عن أفريقيا فاننا نجد الواحات والبقاع الخصبة تنهض أحياناً بين بحور الرمال ، وملامح الخيرية تتبدى لنا بين العقول البليدة والجوفاء ، وتظهر لنا نماذج غنية للعبقرية وسمات لمجتمعات متطورة .

وإذا تغاضينا عن أقــاليم أفسدها الجهل والكسل والقهر والخرافات يمكن للباحث الواعي أن يجد مجالاً خصباً للأخلاق ويبتهج للتفتح الذهني والروح الخلاقة عنــــد الطوارق ممكن يسكنون هاجار (Hagara) والذكاء الخارق وروح الخير عند آل حسان (Houssan) .

ان الكشف عن معالم هذه الحضارة ونشرها يعتبر عملا نبيلا بكل تأكيد .

وهل هناك أكثر متعة من دراسة الفرد والمجتمع ، حيث يمكن للفن أن يرقى وللمعرفة أن تمتد وتخدم البشر ، وحيث يمكن توجيه التجارة أحسن توجيه .

وإذا استطعنا أن نقوم بهــذا الدور النبيل بأن ننشر المعرفة والفن ونحمل لهؤلاء القوم المتوحشين الغلاظ روح التقدم فان ذلك سيكون له عظيم الأثر على تجارتنا وخبراتنا ونسهم فضلاً عن ذلك في تطوير المعرفة الانسانية بمختلف فروعها .

ولقد أتاحت هذه المعلومات لأعضاء الجمعية الاكفاء فرصة المعرفة وخلقت الحماس لدى الافراد الذين يمكن أن توظفهم لديها ، ومهدت الطريق للقيام باكتشافات عملية وضمنت المزايا التي يمكن الحصول عليها. وكان لتصنيف هذه المعلومات المختلفة — عن أفريقيا — أثر كبير في توفير حصيلة معقولة من المعرفة وفي خلق الحافز للقيام بالمخاطرة.

وبالرغم من غموض التقارير وعدم دقتها إلا أنها رسمت صورة عامة يمكن بالحكمة والفهم الواعي والدراسة استخلاص الحقائق من خلالها.

وغالباً ما تكون الدراسة في ظروف غير ملائمة وخلال معطيات غير كاملة ولكن بالمقارنة وربط الحقائق والمتغيرات يمكن ان نضيف إلى التراث الانساني رصيداً من المعرفة.

وأحب هنا أن أشير إلى مذكرات ميجور رينيل Major Rennell حين قال « إن المعلومات توفر موضوعاً للدراسة للفيلسوف والجغرافي وهي بذلك تخلق مجالا للاستنتاج لتخدم العلم في النهاية ».

وعلى ضوء التقارير التي قدمها الرحالة عن رحلاتهم منذ كتابات هيرودت (أبو التاريخ) حتى مذكرات دانفيل وميجور رينيل ، أمكن تصحيح خريطة افريقيا ، واستطاع الرحالة الاوائل أن يحولوا التخيلات والتخمينات الى واقع ، وساهم هذا في توفير قدر كبير من الثقة لكل من يفكر في القيام برحلة إلى تلك البقاع النائية.

ولو اقتصر دور الجمعية على جمع وتبويب التقارير السابقة ، وعرض ميجور رينيل لصح القول بانها تهدف إلى خدمة الأجيال المقبلة فقط.

ولكن لحسن الحظ فان مذكرات السيد بارك عن رحلته إلى النيجر ويوميات هورينمان عن رحلته من القاهرة إلى مرزق ستوضح أن دور

الجمعية لم يكن مجرد القيام باكتشافات مبدئية .

وبالرغم من ظروف الحرب والثورات الـتي صاحبت تكوين الجمعيـة امتد نشاطها هنا وهناك ، وفي عـام ١٧٩٨ وصلت إلى قلب افريقيا وتخطى الرحالة الذين اختارتهم الجمعية كل الصعاب التي خلقتها تلك الظروف والتي أضافت إلى رحلاتهم عديداً من المخاطر التي لا تحتمل .

وأحب أن أنوه هنا أن الرحالة التي تعرض مذكراته بـين يدي القارىء مدين إلى الروح المتحررة والواعيه التي أبداهـا بعض القادة ، والذين أعطوا أمراً لجيوشهم بحمايته من أي هجوم عدائي أثناء قيامه برسالته التي ستعود بالخير على البشرية .

واستطاع فريدريك هورنمان (Frederick Horneman) أن يصل سالماً إلى القافلة التي تسير من مكة إلى فزان واستطاع أن يتابع رحلته من « القاهرة » حتى « مرزق » بفضل الحماية والرعاية التي وفرهـا (الجنرال بونابرت) .

وعند الاعداد لرحلتي بارك وهورينمان تدارست الجمعية كل المعلومات السابقة ، وبحكمة اختارت الطريق المناسب لرحلاتها ، ولهـا أن تهلل لنجاح أي مغامرة .

ولقد قام الرحالة بالتعرف على الطرق التي يتحتم على التجارة أن تلجها ، وفتحت فتوحات السيد بارك الباب على مصراعيه للتجارة مع كل بلاد افريقيا وشرقها الأقصى .

ان الأجزاء القابـلة للملاحة لنهري جامبيا والنيجر ليست بعيدة ، وحين نوفر محطات متوسطة ونحدد ملامح الطريق يمكن أن يكون ذلك خير مساهمة لتدعيم النشاط التجاري .

واذا استطاعت منتجاتنا أن تحظى باهتمامهم وتجد طريقها اليهم سيكون

من الصعب حينئذ أن نتخيل غزارة الطلب على سلعنا من تلك المناطق الشاسعة الغزيرة السكان .

وقد لفتت الجمعية نظر الحكومة إلى ذلك ، ومما لا شك فيه فان هذا الموضوع يستحق اهتماماً كبيراً .

وعند ما يستنفذ التجار الطريق الشائك الذي مهده بارك وهورنمان يستطيع الفلاسفة والطبيعيون أن يلعبوا دورهم في انماء الحضارة ومضاعفة رصيد الانسانية من المعرفة .

وحين يشعر أعضاء الجمعية بأن هدفهم النبيل قد تحقق لا يستطيعون إلا أن يذكروا بابتهاج لحظة انشاء الجمعية ويجتهدون في تحسين أساليبها للوصول بها إلى الأهداف المشرقة التي رسمت لها .

وقام ليديارد (Ledyard) ولوكاس (Lucas) بنقل المعلومات التي حصلوا عليها عن أفريقيا وشعبها . ولقد اهتم كل منهما بالتحقق من صدق الروايات وتصحيحها بناء على استفسارات شخصية واستقصاءات فعلية .

وتوفي السيد ليديارد في القاهرة قبل أن يبلغ هدفه ، ومنعت المخاطر والصعاب « لوكاس » من أن يذهب أبعد من مصراته « جنوب شرق طرابلس » واستطاع أن يجمع بعض المعلومات من الشريف (محمد) ومن تجار فزان ، وعاد إلى طرابلس حيث رجع بعد ذلك إلى انجلترا .

ولقد كانت الجمعية وما تزال تتمسك بالمبادىء والأهداف النبيلة ولم يكن يعوقها فشل أحدهم أو موت آخر . وكانت لا تدخر وسعاً في اختيار مغامرين جدد يغزون آفاقاً جديدة .

فكان على السيد ليديارد أن يسير شرقاً وعلى السيد لوكاس أن يتجه شمالاً واختير ميجور هاوتون (Major Houghton) ١٧٩٠ ليسافر إلى نهر « جامبيا » وأن يجوب المنطقة شرقاً وغرباً . ووصل هاوتون

ساحل أفريقيا في العاشر من نوفمبر من نفس السنة وبدأ على الفور رحلته إلى المدينة بالطريق النهري وبعد ٩٠٠ ميلاً من جامبيا إلى المدينة استأنف السير إلى بامبوك (Bambouk) وإلى مملكة (كاسون Kasson) المجاورة .

وفي سبتمبر ١٧٩١ ولسوء الحظ انتهت رحلته بموته بالقرب من مدينة جارا (Jarra) .

ولقد كان السيد بارك أوفر حظاً من سلفه « ميجور هاوتون » إذ تلمس طريقه (عام ١٧٩٥) بين ضفاف النيجر إلى سيجو (Sego) وسيلا (Silla) الآهلة بالمدن التجارية المزدحمة ، وتجول بين الصحراء الشمالية والجنوبية لأفريقيا وكل بقعة فيها كان اجتيازها لعهد قريب يعتبر ضرباً من الخيال ، وكانت مجالاً لخيالات الفلاسفة لعدم توافر المعلومات الموثوق بها .

ونوقشت ملاحظات السيد بارك خلال اجتماع الجمعية السنوي في مايو عام ١٧٩٨ . وسيظل ١٧٩٧ عاماً خالداً في تاريخ الجمعية حين طلعت على العالم بنبأ اكتشاف مجرى النيجر من شرقه الى غربه وبعد مضي أكثر من ألفين وثلثمائة سنة تأيدت وثائق الـ (النسامونيين Nassamones) وتحققت أقوال هيرودوت بعد أن تعرضت طيلة هذه الأعوام الطويلة للشك والارتياب بل رفضها قبل مائة سنة السيد دانفيل (D'Anville) نفسه .

وعلاوة على ذلك فقد وضح لنا من خلال المعلومات التي جمعها السيد بارك عن القرى التي تنتشر على ضفاف النيجر انها يمكن أن تكون مجالا حيوياً للتجارة .

ان كاتب هذا المقال لا يهدف من ورائه أن يلفت الأنظار إلى

يوميات السيد (مونجو بارك Mungo Park) أو أن يعطي دليلا على نجاح الجمعية واخلاص أعضائها .

ان السيد بارك لم يعط اللثام عن طبيعة الأقاليم فقط بقدر ما أبان السكان - ولقد تناول تلك المناطق الآهلة التي تغطي مساحة كبيرة من افريقيا من شرقها إلى غربها وتنـاول في نفس الوقت خصائص شعبها واخلاق البربر والزنوج باسلوب بارع وحاذق . وأعطى إلى جانب هذا درساً مفيداً في كيفية الإعداد للرحلة ومستلزماتها والتجهيزات الضرورية وأبان الطريق إلى المناطق والمدن الهامة وأوضح الأساليب التي تكفل التجوال المأمون .

وها هي الجمعية وقد تركت التصورات والخيالات جانباً تفسح مجالا للسيد هورنمان ليحكي لنا يومياته والتي هي موضوع هذا الكتاب .

ان الكاتب رغبة منه في تحقيق أقصى النتائج يرحب بأي رأي أو اقتراح .

لقد ولى زمن التخمين والحدس ولقد كان من العبث في واقع الأمر في هذه المرحلة من الاكتشافات الفعلية والأبحاث العملية أن تعتمد على التخمين في الأمور التي تتعلق بمستقبلنا .

وعندما بدأت الجمعية نشاطها بغية اكتشاف قلب أفريقيا ربما كان من المناسب أن تقرر بصوت عال أن كل الشائعات وكل التوقعات أصبحت تقارير فعلية تمارس دوراً حيـوياً في خلق روح المغامرة لدى المغامرين وفي خلق روح المبادرة لديهم .

ان الدوافع بحاجة إلى المعرفة الحقيقية الدقيقة حتى يمكن أن تكون وسيلة للنجاح .

والجمعية مصرة على أهدافهـا وواثقة منها وتعرف وسائل تحقيقها .

ولن يسافر الرحالة في المستقبل يدفعه حب الاستطلاع والاندفاع الأخرق ، ولن يتخبط في الظلام أو في مخاوف لا أساس لها ، وإنما سيكون مدرباً مدفوعاً إلى هدفه برغبة تساندها المعرفة والحرص .

على أن أهداف الجمعية مرتبطة بإمكانياتها .

ولا يمكن للجمعية أن تهبط بنفسها الى مستوى الاستجداء مهما كانت الظروف ، ولكنها ستكتفي بأن تعلن على الملأ أنه بنجاح الجمعية في تحقيق أهدافها سيعود الخير على « بريطانيا العظمى » و « أفريقيا » والعالم أجمع .

وليم يارنج
سكرتير الجمعية الافريقية

تقديم

لمحة سريعة عن فريدريك هورنمان والكيفية التي تم بها الاستعداد للرحلة والأحداث التي سبقت مغادرته القاهرة :

عندما عمل السيد مونجو پارك (Mungo Park) مع الجمعية كان من المقرر أن تمتد اكتشافاته لتغطي جزءاً كبيراً من القارة الأفريقية بصحبة رفيق آخر .

وفي بداية عام ١٧٩٦ تقدم فريدريك هورنمان إلى الجمعية وبدا صغيراً قوي البنية تبدو عليه المقدرة على تحمل الصعاب في مختلف الظروف والأحوال ، وقد أبدى شجاعة وذكاء ملحوظاً ، وكان يقدر المتاعب التي تكتنف المشروع وأظهر حماساً للقيام به . كل هذا أيد إلى حد كبير ترشيحه لمثل هذه الرحلة .

ورشحته الجمعية ووفرت له أساليب المعرفة وأوفدته على نفقتها إلى مدينة جوتنجن (Göttingen)[1] لدراسة اللغة العربية والتعرف على

---

(١) مدينة تقع جنوبي هانوفر وغرب وسط المانيا (المعرب) .

طباع أهلها ، إلى جانب بعض ألوان المعرفة الأخرى حق تجعل رحلته أكثر افادة للجمعية والمجتمع .

وتابع فريدريك هورنمان دراسته لعدة أشهر تحت اشراف الأساتذة بليمنباخ (Blumenbach) وهيرين (Heeren) وهوفمان (Hoffman) وتيشن (Tyschen) وهينه (Heyne) .

وفي مايو ١٧٩٧ عاد إلى انجلترا حيث وافقت الجمعية على اختياره للرحلة واستعد على الفور للسفر إلى القاهرة .

وفي يوليو ١٧٩٧ غادر لندن متجهاً إلى باريس .

ولقد كان استقباله في باريس ودياً وأخوياً ودُعي هناك لاجتماع في المجلس القومي ، وأبدى أعضاؤه استعداداً إيجابياً لتشجيعه ومساعدته ، وأهداه السيد لالاند (Lalande) نسخة من مؤلفه (مذكرات عن أفريقيا Memoire Sur L'Afrique) وقدمه السيد (براوسنيه Broussonet) إلى (لورش Luroch) الملحق بموجادور (Mogadore) واستطاع بهذا التعارف أن يتعرف على أحد الأتراك المقيمين بطرابلس كان يقيم آنذاك بباريس .

وقد أبدى هذا التركي « المسلم » استعداداً غير متوقع لمساندته وكتب له عدة خطابات توصية لعدد كبير من التجار المسلمين بالقاهرة ممن لهم علاقة تجارية بالبلدان النائية في افريقيا .

وفي أغسطس غادر هورنمان باريس إلى مارسيليا ووصل الى الاسكندرية في سبتمبر ومكث بها عدة أيام قبل أن يغادرها إلى القاهرة . وفضل ان يظل بها بعض الوقت لدراسة لغة وطباع العرب .

ونقدم فيما يلي ترجمة خطاب بعث به هورنمان لعله أبلغ وصف لما حدث .

سيدي

أوضحت في خطابي السابق رغبتي في مغادرة القاهرة في نهاية مايو . ولكن ظهور الطاعون جعل من دواعي الاحتياط لا أن أؤجل الرحلة فقط ولكن لأغلق الباب على نفسي .

ولكن حماسي للقيام بما أعتزمته دفعني الى ان اغمض عيني عن هذه المخاوف ، وغادرت المدينة رغبة في اللحاق بالقافلة في المكان المحدد ولم تكن هناك صعوبة في التزود بمستلزمات الرحلة .

وحالما خفت حدة الوباء رحلت سالما وقابلت عديداً من رفاق القافلة ممن كانوا آنذاك في القاهرة انتظاراً لوصول الركب قادماً من مكة .

ولسوء الحظ أحبطت فجأة كل توقعاتنا حين بلغت جيوش فرنسا شواطىء مصر .

واختفى كل من كانوا معي في انتظار القافلة ولم يكن قد وصل بعد الركب القادم من مكة .

وفي هذه الأثناء قبض عليّ وبعض الأوربيين وأودعنا القلعة ، ولقد كانت أكثر أمنا من مواجهة الجماهير الغاضبة . ومكثنا بها حتى وصلت جيوش فرنسا القاهرة .

وبعد خروجي تعرفت على اثنين من الفرنسيين من ذوي النفوذ وقدموني للقائد العام وقابلني الأخير بحفاوة وترحاب .

ولم يكن ضروريا أن أتكلم كثيرا لأشرح المشروع فقد كان الرجال على ثقافة ودراية واسعة ووعدني القائد بالحماية وأمدني بالمال والضروريات وأوصى أن يعد لي جواز المرور اللازم .

والتقيت مرة أخرى بتجار فزان وعاد الآخرون عندما تأكد هدوء الجماهير والتأم شمل الجميع وبحلول اليوم التالي يكون قد مضى خمسون

يوماً على استعدادنا للرحيل النهائي .

ان من يقومون بمشاريع غير عادية لا بد وأن تكون أساليبهم غير عادية ولا بد لهم أن ينتهجوا مناهجاً متميزة .

إن الخطة التي وضعتها لنفسي هي أن أسافر مع الرحلة كواحد من التجار المسلمين ، بهذا تصبح رحلتي بسيطة وسهلة ولدي يقين أنه تحت ستار هذه الشخصية أستطيع أن أسافر بنفس الطمأنينة التي يسافر بها أهل البلاد .

وهناك كثير من رجال القافلة يعرفون أن هناك عدداً كبيراً من المسلمين من بلاد مختلفة لا يتحدثون اللغة العربية كما أن لهم عادات وطباعاً مختلفة . وهكذا وبمعرفة قليل من عادات المسلمين وطقوسهم وبدون صعوبة كبيرة يمكن أن يعده الناس مسلماً إذ لا سمات واضحة تميزه عن غيره .

ان السفر كمسيحي ربما يكون غير عملي لمدة خمس سنوات أخرى على الأقل فلا يمكن أن نتصور مدى ما تركته الحملة الفرنسية من أثر سيء في قلوب الحجاج وسيحمل كل منهم بالطبع شعور العداء وينتقل معه ليشمل القارة بأسرها .

وإذا سافرت كتاجر مسلم ، ألا يمكن أن أكون قد اخترت لنفسي مصير ميجور هاوتون ؟ إن الرد على هذا التساؤل هو أنني باختياري هذه الشخصية فلن أسافر وحدي وفي وسط قافلة كبيرة يمكن أن أعتبر كواحد منهم .

أما فيما يتعلق بالمعدات الفلكية التي أحملها فقد احتطت لهذا الأمر وإذا سئلت عنها فإن الإجابة حاضرة وهي أن هـــذه الأدوات للبيع وبالطبع سأغالي في ثمنها حتى لا أفقدها .

لعلي لم أضع منهجاً واضحاً لرحلتي ولعلي لم أخطط لها ، ولكني علمت من أحد الرفاق ممن زاووا بورنو (Bornou) وكاشنا (Cashna) أن هذه الأماكن تستحق الدراسة وذلك بعد وصولي فزان .

وأتوقع أن أصل فزان مع بداية شهر نوفمبر وفي خلال السنة التالية أرجو أن أستطيع زيارة أجادس (Agades) وكاشنا قبل أن أعود قافلاً عن طريق مكا أو سنجامبيا (Senegambia) .

سأكتب إليكم مرة ثانية من فزان ، ولعل من أفضل الوسائل التي تضمن وصول خطابي إليكم أن أحزم بعض الأمتعة مع خطاب عادي باللغة العربية على أن يكون خطابي الحقيقي مكتوباً على غلاف أحد الأمتعة .

أرجو أن تكتبوا إلى القنصلية البريطانية بطرابلس بألا يتصلوا بي أو يسألوا عني لدى تجار فزان .

فإن هؤلاء الرجال فضوليون يملأهم الحقد وأي استفسار عني من جهة مسيحية سيثير ولا شك زوبعة من الشكوك . كما أرجو أن لا يثير صمتي عنكم خلال السنوات القليلة القادمة أي مخاوف . فكما وضحت لكم أن سفري كواحد من التجار المسلمين سيوفر لي الحماية والأماكن بينما تكمن المخاطر الحقيقية في مخاطر الرحلة ذاتها والتي أرجو أن أواجهها بشجاعة .

وبقي الآن أن أقدم للجمعية « الرجل » الذي أشرت اليه في خطابي السابق وهو جوزيف فريندنبرج (Joseph Frendenburg) وهو ألماني المولد وقد قابلته في ذات الليلة التي اعتزم فيها أن يترك القاهرة إلى موطنه وقبل أن يعمل معي كدليل وأرجو أن توافق الجمعية الموقرة على استخدامه .

وفي الواقع أرى أنني بدونه يصعب علي أن أقوم بتلك الرحلة دون أن أعتنق الديانة الإسلامية . إذ أن فريندنبرج كان قد أجبر على اعتناق الإسلام قرابة عشر سنوات ورحل إلى مكة ثلاث مرات ويتحدث اللغة العربية والتركية بطلاقة . ويعرف جيداً طباع وعادات المسلمين وباختصار فإن هذا الرجل هو تماماً ما احتاجه ، وبارتباطي بـه ستتضاعف ثقة الآخرين بي .

سأترك له العناية بجمالي وخيولي وسيعتني أيضاً ببضاعتي ويكون لدي حينئذ الوقت الكافي للدراسة والبحث .

وأرجو من الجمعية أن تحدد مكافأة معقولة له ، خصوصاً وأنـه في حالة وفاتي فسيحتفظ بأوراقي ومذكراتي ويبعث بها إلى انجلترا .

أنا لست متأكداً من وصول هذا الخطاب إليكم ولكن بناء على طلبي قد تفضل الجنرال بونابرت بأن يبعث به تحت رعايته .

أرجو أن يكون خطابي التالي من فزان وبعد ثلاث سنوات سأكون قادراً على أن أقدم تقارير وافية عن رحلاتي في قلب أفريقيا .

المخلص

فريدريك هورنمان

وقد وصل الخطاب السابق بالفعل إلى الجمعية تحت رعايـة الجنرال بونابرت .

وقد بدأت رحلة السيد هورنمان من القاهرة إلى فزان بعد خمسة أيام من كتابته لهذا الخطاب وقد كتبه هورنمان بالألمانية ، وترجم منها إلى الانجليزية تحت رعاية الجمعية وقد قام بمهمة الترجمة ألماني ملم إلماماً كاملاً باللغة الانجليزية حتى يعرض معاني الخطاب كما وردت في ذهن كاتبه بدقة

واخلاص . وبمراجعة هذه الترجمة كان واضحاً أنها تمت بعناية ودقة .

وكانت هناك ضرورة إلى اعادة صياغة بعض الاصطلاحات والأساليب الغريبة عن الإنجليزية ، وعندما قام سكرتير الجمعية بهذه المهمة ، طولب بالمحافظة ليس فقط على الوصف الأصيل والملاحظات والمعنى الذي قصده الرحالة ، وإنما فوق ذلك بروح النص وفي نفس الوقت الحفـاظ على سهولة السرد التي تتميز بها المذكرات .

ويمكن القول انه بالرجوع إلى الأصل وجد أن الترجمة بشكلها الحالي تعتبر تعبيراً صادقاً له ، بقدر ما يسمح به الاختلاف بـين اللغتين الانجليزية والألمانية .



رحـــلات إلى قلب افريقيـــا

الجزء الاول

السفر من القاهرة إلى اوجيله



الفصل الاول

إلى أم الصغير

انفق تجار أوجيله (Ougila) أن يعقد لقـــاؤهم في كاردافي (Kardaffi) وهي قرية تقع إلى جوار القاهرة . حيث لحقت بهم في ٥ سبتمبر ١٧٩٨ ، وتركنا المكان في نفس اليوم .

وفي خلال ساعة بلغنا القافلة الكبيرة التي تسافر سنوياً من مكة إلى بلدان غرب أفريقيا عن طريق القاهرة وفزان .

وكانت القافلة في انتظارنا في بلدة تدعى أبو رواش (Baruash) وتوقفنا على مقربة من الحجاج وعسكرنا حتى الصباح التالي واستيقظنا على صوت طبول « شيخ القافلة » قبل شروق الشمس لاستئناف السير .

لم أكن مستخفاً بمتاعب الرحلة ، وكنت على يقين أننا سنلقى منهـا الكثير ، على الأقل بالنسبة لي ، فلم أكن قد سافرت في قافلة من قبل ولم أكن على علم بعادات وأخلاق المسافرين . استأنفنا المسير من الصباح الباكر حتى الظهر ، ولم يكن هناك ما يدل على أننا سنتوقف أو نستريح حين استرعى انتباهي أن أغنى تاجر في القافـلة كان يمضغ كعكاً جافاً وبصلاً طوال السفر ، وعرفت للمرة الأولى بأنه ليس من المعتاد أن

تتوقف القافلة لتناول الوجبات المعتادة أو خلال ساعات النهـار إلا إذا دعت الضرورة .

لقد كان ذلك أول ما ضايقني ، ولكن بعضـاً من المسافرين الذين يترجلون بالقرب مني هونوا عليَّ الأمر ودعوني لمشاركتهم الطعام .

إن مرافقي يملك أن يكون طباخا ماهرا حتى في أوربا ، ومن بقايا المؤن التي حصلنا عليها من القاهرة من بعض الأصدقاء الكرماء ، كان يعد طعاماً فاخرا . وكنت . أنا بلا عمل آنذاك حين اقترب مني عربي عجوز من أوجيله وقال .

« أنت صغير ، لماذا اذن لا تساعد في اعداد الطعام الذي ستأكله ؟ ربمـا تلك عادة الكفار ولكنها ليست عادتنا ولاسيما أثناء رحلة ، وأضاف الشيخ قائلا : شكرا لله أننا لسنا عالة على أحد في هذه الصحراء كهؤلاء الحجاج المساكين بل نأكل ونشرب مما نعد وكما يحلو لنا . يجب عليك أن تتعلم كل ما يقوم به أفقر العرب لتكون قادراً على مساعدة الآخرين عند الضرورة والا فقدت احترام الناس وكنت أقل قيمة من امرأة ويظن الآخرون أنه من العدل أن تجرد من كل ما تملك لأنك لا تستحق أن تملك شيئاً .»واستطرد ساخرا« لعل لديك مالاً وفيراً وستدفع كثيراً لهؤلاءالرجال».

ولم يذهب هذا الاحتجاج سدى ، إذ ساهمت لفوري في كل مـــا أستطيـع أن أقوم به ، وحظيت جزئياً باحترام الجماعة ولم أكن عضواً خاملا أو عديم الفائدة .

وفي الصباح التالي نهضنا مبكرين ، وبعد مسيرة أربـع ساعات بلغنا وادي الأطرون وكنا قد تلقينا اشارة التوقف للبحث عن مـــاء حين ظهرت جماعة من البدو على مقربة منا مما خلق ذعراً كبيراً بين القافلة .

وكان شيخنا « قائد القافلة » يتمتع باحترام وثقة رفاقه بمـا عرف

عنه من شجاعة وإيمان وحصافة رأي ، وسرعان ما أمرنا أن نحتل منطقة المـاء وذهب على رأس عشرين من العرب والطوارق لاستطلاع المكان الذي ظهر منه البـدو وكانوا قد اختفوا تماماً عن الأنظار ، واستطعنا يومها أن نعد طعاماً ونملأ قرب المياه .

ولما كان من الصعب أن نأمن إلى هذا المكان ليلاً استأنفنا السير في الرابعة بعد الظهر ، وفي حوالي الساعة الثامنة مساء بلغنا سفح أحد الجبال وعسكرنا هناك في اضطراب ، ولم نوقد ناراً وتصرفنا بحيطة وحذر حتى لا نلفت الأنظار .

وفي الصباح التالي وكان الثامن من سبتمبر ، بلغنا الصحراء التي يمكن اعتبارها حدود مصر ، وبعد مسيرة لمدة ثلاث عشرة ساعة عسكرنا في منطقة تدعى (Muhabag) .

وفي اليوم التالي كانت رحلتنا أقل ارهاقاً ، وبعـد أربع ساعات ونصف وصلنا موجارا (Mogara) وهي واحة تقع على حافة وادي خصيب .

ويحفظ الماء الذي تستخدمه القافلة في قرب من جلد الماعز ، وهي تشق من الوسط وتسلخ كاملة قدر الامكان من الحيـوان ، والقرب المصنوعة في السودان هي أقواها وأحسنها يمكن أن يحفظ بها الماء لمدة خمسة أيام دون أن يلحقه طعم غريب ، أما القرب الأقل جودة فتكسب الماء طعماً منفراً من اليوم التالي .

وحتى يمكن الاحتفاظ بهذه القرب مدة أطول فهي تدهن عادة بالزبد من الداخل ويدهنها العرب أحياناً بالزيت (القطران) [١] ، ويصيب الماء في هذه الحالة طعم رديء ولا يستطيع أحد أن يشربه سوى العربي .

(١) نوع من الزيت الذي يستخرج من بذرة الحنظل (المعرب) .

وفي اليوم السادس كانت رحلتنا شاقة ومضنية استغرقت اثنتي عشرة ساعة دون توقف ، وبينما نحن في طريقنا إذ بحصان أحد الأعراب الذين يترجلون بالقرب مني يحل به التعب ويصبح غير قادر على متابعة السير بنفس خطوة القافلة ، وبقيت مع صاحبه في المؤخرة أساعده . وحين عسكرنا مساء تلك الليلة أرسل إلي ذلك الاعرابي على الفور قطعتين من لحم الجمال حملها إلي خادمه راجياً أن أقبل هديته لقاء شعوري الطيب الذي أبديته نحوه . وسرعان ما أحاطني بعض العرب الفقراء ينظرون بنهم لقطعتي اللحم وأبدوا كثيراً من الدهشة حين قسمتها عليهم ولم أشاركهم ما يعتبرونه طعاماً شهياً .

إن الأحداث الصغيرة والتافهة غالباً ما ترسم صورة دقيقة للعادات وتميز الشعوب . ولعل طريقة تجهيز الغذاء وأنواع الأطعمة التي يستخدمها العرب في رحلاتهم عبر الصحراء ، يمكن أن تكون موضوعاً شيقاً للدراسة وعلى الأخص بالنسبة لمن يقومون برحلات مشابهة .

يبدأ العربي رحلته ومعه زاده من الدقيق والكسكسي والبصل وشحم الضأن والزيت أو الزبد ويضيف الغني منهم إلى هذه القائمة الكمك واللحم الجاف ، وحين تتوقف القافلة وتحط الأحمال يحفر العبيد حفرة في الرمل لاشعال النار ويجمع الخشب وترص ثلاث قطع من الحجارة حول الحفرة لحجز الجمرات وليرتكز عليها المرجل . ويضيع الوقت في الحديث حتى تغلي المياه .

ان الوجبة المعتادة هي « البازيد » (Paside) وهي عبارة عن عجين يابس يقدم في طبق من النحاس ، ويمكن استخدامه كآنية ولحمل الأمتعة ولسقي الجمال أيضاً ، وتؤكل هذه الوجبة مضافاً اليها الحساء والكركم المطحون .

وفي أحيان أخرى يتكون الغذاء من عجينة من الدقيق تقطع قطعاً صغيرة وتغلى وتتبل وتسمى « مجوتا » (Mijotta) .

وتصنع أفضل الوجبات من اللحم الجاف المغلي مع الشحم وشرائح البصل والكمك المطحون ويضاف اليها الملح وكمية كبيرة من الفلفل .

وبينما يستأثر السيد باللحم يقدم الحساء فقط للعبيد والأتباع .

إن اللحم من الصعب مضغه بالأسنان الآدمية ومع هذا فتجد أن العظام تتلقفها أيدي كثيرة قبل أن ترمى .

ويصنع العربي النعال من جلد الذبيحة ويغزلون شعرها ويصنعون منه الحبال .

لا يسمح الوقت في أغلب الأحوال لصنع طعام جيد ولذا فإن المسافر يحمل معه طعاماً يسمى زميطه (Simiteé) وتطهى بغلي الشمير حتى ينتفخ ويجفف في الشمس ثم على النـــار ويطحن ويخلط بالملح والفلفل وحبوب الكراوية ، ويحفظ الخليط في قربة جلدية ويعجن بقليـل من الماء قبل الأكل ويضاف اليه بعض الزيت أو الزبد ، وإذا خفف الخليط السابق بقليل من الماء وأضيف اليه البلح تسمى الوجبة حينئذ (روين Rouin) وتتضح أهمية هذه الوجبة حين يندر الوقود أو الماء ويعز الوقت .

وقد شكل الروين (Rouin) طعاماً دائماً لعدة أيام ، ولا تخـلو المائدة في العادة من البصل أو الفلفل .

وفي اليوم السابع وبعد مسيرة أربع ساعات وصلنا (Biljoradec) وتسمى أيضاً (Jabudie) وكان الماء المتاح غير صالح للشرب .

وخلال الثلاثة أيام التالية كان السفر يتم عادة ليلاً ، وفي اليوم الأول منها (وهو اليوم التاسع منذ تركنا المنطقة المجاورة للقاهرة) بلغنـــا سلسلة الجبال التي تحد الصحراء الشاسعة التي عبرناها ..

وخلال اليوم العاشر ، أثناء صعودنا تلك الجبال لاحظت أن هناك تكوينات ملحية تنتشر على طول الوادي الذي لم تكن العين لتبلغ مداه ، وتبدو صخور الملح بلون الرمل تتبعثر هنا وهناك وتعطي لهذا السهل المنبسط مظهر حقل حرث حديثاً .

واكتشفت وسط هذه المنطقة الملحية عيناً للمياه وقفزت عبارات هيرودوت إلى خاطري حين قال :

« عيون المياه الحلوة وسط تلال الملح » وحين بلغت حافتها وجدتها محاطة بالملح وانتظر بعض الحجاج الساكين أن اختبر المياه ولكنها كانت مشبعة بالملح لدرجة يستحيل شربها .

وفي اليوم الحادي عشر من بداية الرحلة (والخامس عشر من سبتمبر) بلغنا منطقة آهلة بالسكان ، وخلال مسيرة لمدة خمس ساعات وصلنا مشارف بلدة صغيرة تدعى ام الصغير (Ummesogeir) .

الفصل الثاني[1]

مشاهد من الصحراء من وادي النطرون حتى جبال ام الصغير

تشكل الصحراء الحدود الطبيعية لمصر ، وهي تمتد غرباً من وادي النطرون إلى جبال (أم الصغير) وإلى الشمال يحد الوادي الموحش القاحل سلسلة من التلال الشامخة ، تصاحب العين طيلة الطريق . والى الجنوب يمكن أن تسير قافلة ربما لعدة أيام بالحساب المعتاد .

في هذه المنطقة الرملية الشاسعة يمكنك أن تجد خشباً متحجراً من مختلف الأشكال والأحجام ويمكنك أحيانا أن ترى جذعا كاملا لشجرة يبلغ محيطه اثني عشر قدماً وأحياناً أخرى تجد أغصانا أو بقايا أغصان يبلغ قطرها ربع بوصة وتجد أيضاً قطعاً من اللحاء من معظم الأنواع وخصوصاً البلوط .

والملاحظ ان عدداً كبيراً من السلالات ما زالت تحتفظ بشكلها ، وفي عدد منها تجد أن الأشجار لم يلحقها تغير كبير وعلى الأخص في سيقان أشجار البلوط .

وتبدو بعض الجسيات الأخرى متحجرة تماماً ولا تستطيع أن تميز نوعها اذ أنها تأخذ شكلاً حجرياً بالرغم من أن مظهرها يوحي بأنها كانت نباتا .

وأخبرني كثير من العرب بأن المتجول في هذه الصحراء يجد بعض الأشجار المتحجرة تقف عمودياً كما لو كانت تنمو في التربـــة ، وسلمت جدلاً فيما لم أره ، ولكني أعتقد أنها سيقان أشجار رفعها شخص ما ثم تجمع الرمل حولها فبدت كما لو كانت هضبة .

ان لون الخشب المتحجر أسود في أغلب الأحوال أو أقرب إلى هذا اللون ، على أنه توجد في بعض الأماكن بعض الأخشاب المتحجرة تأخذ لوناً رمادياً ولهذا فهي تشبه الخشب في حالته الطبيعية مما يجعل العبيد يجمعونه خطأ حينما يرغبون في اشعال النار .

وتتبعثر هذه الأجسام المتحجرة في أحجام صغيرة وتأخـــذ أحياناً أحجاماً غير عادية وتبدو في أحيان أخرى كطبقة تغطي تمامـاً منطقة كبيرة من سطح الأرض .

ولو أن هناك آثاراً باقية للنيل – كما ردد بعض الكتاب الأوائل – فمن المحتمل أن تكتشف هنا في هذه الصحراء .

وأحب أن ألفت نظر الرحالة المقبلين إلى المنطقة التي تحيط بالأماكن التي عسكرنا بها أثناء الليل عند سفح التلال الرملية غرب وادي النطرون ومنطقة (Mohabag) إذ أننا بلغنا هذه الأماكن بعد غروب الشمس وغادرنا معاً قبل الشروق ولم يكن لدي – شخصياً – فرصة دراستها .

ان تعبير (Bahr - bella - ma – « بحر بلا ماء ») يعني نهراً بدون ماء وهو يشير إلى أي مكان يحتمل أن يكتشف به مجرى قديم أو بئر ولو قيل ان تلك الأشجار المتحجرة كان يصنع منها صاري السفن أو أن اللحاء كان يناسب أغراض بنائها وقيل انها يمكن أن توجـد في (نهر بلا ماء) فإن الترجمة الصحيحة تصبح (بحراً بلا ماء) وليس (نهراً بلا ماء) .

ان سطح هذه المنطقة الرملي يبدو كما لو كان شاطئاً تناثرت عليه قطع اللحاء بفعل العواصف أو الجزر . وتقديري أن ما نتصوره صارياً لسفينة كان في بادىء الأمر أشجاراً طويلة تكسرت وتناثرت شظاياها واصطفت صدفة حتى بدت كما لو كانت صارياً لسفينة من قبل .

وتنهض شمال الصحراء سلسلة من جبال جيرية شاهقة عـــارية ، صاحبتنا لمسافة أميال عديدة وعلى سطحها يمتد مستنقع يمتلىء بالينابيع التي كانت مصدر المياه لنا طيلة اليومين الثاني والثالث .

الفصل الثالث

تقع أم الصفير على وادي رملي وتمتد بين سلسلتين متبـــاعدتين من الجبال .

وقرية « أم الصفير » صغيرة ليس بها سوى عدد قليل من السكان ويبلغ من يستطيعون حمل السلاح ثلاثين رجلاً فقط . ومنازلها منخفضة بنيت من الصخور والتراب الجيري وغطيت بجريد النخل ، وقيل لي ان بعضاً من هذه البيوت بنيت فوق كهوف وحجرات تحت الأرض يحتمل أن تكون مقابر قديمة .

وعسكرت قافلتنا عند سفح أحد الصخور على الطريق الذي يؤدي إلى القرية .

وترك سكان القريـــة منازلهم واستقبلونا بترحاب وساعدونا في سقي الجمال وكل ما احتجنا اليه .

وعند المساء مشيت إلى القرية بطريق وعر وصلت إلى ما يمكن أن نسميه سوقاً وفي وسطه كانت تدار الصفقات بحماس ، وتتعالى أصوات التجار حتى ليخيل اليك انهم مئات ولكني فوجئت بأن البائعين ليسوا سوى نفر قليل من الحجاج المرافقين للقافلة يبيعون خواتماً من الرصاص أو الزجاج وحلياً للنساء وفي تقديري أن كل البضائع المعروضة لا تساوي بضعة قروش .

ان أهل أم الصغير فقراء يعتمدون في غذائهم على البلح ويبيعون منه إلى المسافرين ويحمل جزء كبير منه إلى الاسكندرية يبـــادلونه بالقمح والزيت والشحم .

وكما نتوقع من مجتمع صغير جداً يعيش في عزلة عن العالم ويفصل بين بعضه البعض مساحات شاسعة فإن طباعهم تغلب عليها الخشونة وهم قليلو العدد لا يستطيعون الحرب ، فقراء ليسوا مطمعاً لأحد ويسبغ عليهم أسلوبهم في المعيشة ثوب البساطة والمسالمة .

وأخبرني رجل عجوز أن البدو حاولوا ذات مرة أن يغتصبوا منهم قريتهم الصغيرة التي يظللها النخيل وكان يمكن أن ينتصروا لولا كرامات أحد الشيوخ التي أعمت أبصار الغزاة ولم يستطيعوا الوصول إلى مكان النخيل رغم طوافهم حوله . والجـــدير بالذكر أن معجزة مماثلة كانت متوقعة حين غزا الفرنسيون مصر .

ان فكرة وجود المعجزات على هذا النحو شيء مألوف في بلاد الشرق.

وأثناء وجودنا في هذا المكان بيعت حاجيات أحد رجال القافلة بعد أن لقي حتفه . وكان قد سقط آخر من على جمـــله وتهشم رأسه خلال الطريق .

وقد اختتم قـائمة الضحايا اثنان من الحجاج نتيجة الارهاق والتعب وندرة الغذاء وقلة الراحة .

واستأنفنا السير – بعد عدة أيام – تجاه سيوه – وهي تبعد مسافة عشرين ساعة من أم الصغير وبلغنا حافة الوادي الرملي العريض وتسلقنا مرة أخرى الجبال المتصلة به والتي تمتـد وتغطي وادي « أم الصغير » غربـــاً .

وأوصلنا طريق طويل ممل الى واد خصيب وعندما هبطنا الجبل

وجدنا الرعاة يجمعون العشب لماشيتهم وعندما اطمأنوا - من مظهر قافلتنا - أننا لسنا قبيلة معادية تجمعوا حولنا مهنئين بسلامة الوصول وأخبرونا أن جيرانهم أناس مسالمون ويمكننا أن نعسكر بأمان دون ازعاج وامتطوا ركائبهم ليرشدونا إلى واد يقع الى الغرب من سيوه وليس بعيداً عن المدينة حيث نصبنا خيامنا .

الفصل الرابع

سيـــوه

ان سيوه ولاية صغيرة مستقلة ، وبالرغم من خضوعها للسلطان الكبير فهي لا تدفع خراجاً له .

وتقع إلى جانب سيوه وعلى مسافة ميل أو ميلين قرى عديدة مثل « شرقي » (Scharkie) وتسمى باللهجـــة السيوية « أجرمي » (Agremie) ، « مسلم » (Msellem) ، « موناش » (Menschie) ، « سبوكا » (Sboka) و « باريشا » (Barischa) .

ومدينة سيوه مشيدة على صخرة كبيرة وسكانها الأوائل كانوا يسكنون الكهوف أما السكان الحاليون فيبنون منازلاً تبدو كما لو كانت كهوفاً ، وشيدت هذه المنازل ملتصقة ببعضها البعض حـــتى أن معظم الشوارع تبدو مظلمة في ساعات النهار . والشوارع في حد ذاتها معقدة لدرجة يصعب على الغريب أن يتعرف عليها دون دليل .

وهناك منازل كثيرة مشيدة على جوانب الصخرة وتبدو مرتفعة عن المعتاد حوائطها سميكة وقوية كما لو كانت حصناً للمدينة .

لقد أطلق رجال القافلة على هذه المدينة « خلية نحل » وهذا التشبيه يناسبها خصوصاً من ناحية مظهرها العام وحشود سكانها والضوضاء الـتي

تنبعث من دروبها وشوارعها وتبلغ أسماعنا من مسافة بعيدة .

ونظراً لارتفاع المدينة فقد بنيت حظائر الجمال والخيل عند السفح .

وتبلغ رقعة سيوه مساحة معقولة ويطوق واديها الخصيب الذي يبلغ محيطه خمسون ميلاً منحدرات وروابي قاحلة .

وتربة سيوه رملية موحلة أو مستنقعية ولكنها دون جهد كبير من سكانها تنتج القمح والزيت والخضروات ، ويشكل البلح انتاجها الرئيسي وينتج بكميات كبيرة وهو ذو طعم طيب ، مما يجعل هـــذه المنطقة مضرباً للأمثال .

ويمتلك كل فرد في سيوه حديقة أو أكثر هي كل ثروته ويوجه كل عمله إلى ريها وزرعها .

وتبلغ قيمة أكبر الحدائق وأخصبهـــا من اربعمائة إلى ستمائة دولار سلطاني ويسمونه (Real - patuacks) .

ويحيط بالحدائق التي تقع عند طرف المدينة سياج يبلغ طوله من أربعة إلى ستة أقدام وتحاط أحياناً بسور من الأشجار .

وتروى هذه الحدائق بواسطة ينابيع من المياه الحلوة أو المملحية التي تسقط من أعلى المنحدرات أو تجري من عيون الوادي نفسه والتي يتفرع منها قنوات عديدة صغيرة تتدفق طواعية إلى مسافات بعيدة .

ويحفظ ناتج البلح في محلات عامة يحتفظ الشيخ بمفاتيحها ، وينقل البلح إلى هذه المخازن مكبوساً في سلال ، ويحتفظ بسجلات للكميات المخزونة .

ويوجد إلى الشمال الغربي من سيوه طبقة ملحية تمتد وتغطي حوالي ميل مربع وبالقرب منها يوجد الملح على السطح مبعثراً على هيئة كثبان أو عروق .

وتتدفق عيون كثيرة في هذه المنطقة ، معظمها ذات ميـــاه حلوة

صالحة للشرب . وإلى شمال سيوه في الطريق الذي يؤدي إلى « الموتى » (El - Motta) [1] لاحظت وجود العديد من العيون الحلوة وأخرى ذات الماء المالح .

لعل من الصعب أن نعرف عدد سكان « سيوه » بسكانها العديدين وحكومتها غير المنظمة وشرطتها الضئيلة العدد ، إلا إذا أتيحت لنا فرصة رؤية سكانها جميعاً في أحد الأعياد أو في احتفالاتهم العامة .

ويمكن بمعرفة عدد المحاربين بها أن نستنتج عدد سكانها جميعاً .

وتبعاً للتقاليد القديمة وقانون الولاية فإن الحكم يوزع على اثني عشر شيخا ويتناوب اثنان منهم الحكم ولكن منذ عشر سنوات خلت انتزع عشرون آخرون من الأغنياء جزءاً من السلطة وانتحلوا لقب الشيخ ووسعوا دائرة الارستقراطية وأدى هذا إلى توسيع حدة الخلاف والصراع على السلطة .

ويجتمعون في مجلس عام لمناقشة القضايا . وقد لاحظت خلال اجتماعاتهم أن صاحب الصوت القوي والأداء العنيف يحظى بتأييد الجماعة واهتمامها ويكون له التأثير كله .

ولا يتفق الأطراف في العادة على قرار وحينئذ تكون للسيف كلمته الأخيرة .

والقضاء يجري طبقاً للعرف والتقاليد وإذا قدرت جزاءات فتكون على هيئة بلح وهي العقاب في مختلف الأحوال ، وعلى سبيل المثال ، إذا ضرب أحدهم الآخر يكون الجزاء من عشر سِلال إلى خمسين ، من البلح وتعتبر هذه السلال القيمة لكل شيء ويبلغ طول الواحدة منها حوالى ثلاثة أقدام ومحيطها أربعة .

---

(١) المقابر . (المعرب) .

ويتكون لباس الرجال من قميص قطني وسروال ورداء كبير من القماش « المقلم » بالأبيض والأزرق المصنوع في القاهرة وهو يلف حول الجسم وينسدل على الكتف الأيسر ويسمى « ملايا » (Melaye) .

ولباس الرأس من الصوف الأحمر أو القطن وأغطية الرأس عموماً تصنع في تونس وهي الزي التقليدي للمسلمين ولا يسمح للطوائف الأخرى كاليهود والمسيحيين والبربر بارتدائها .

ويرتدي أهل سيوه في الأعياد القفطان كما يرتديه العرب في المدن .

وترتدي المرأة السيوية قميصاً واسعاً ذا لون أزرق يصنع في العادة من القطن ويصل حتى رسغ القدم .

وتلبس النساء (الملايا) ويغطين بها رؤوسهن وتنساب إلى الخلف على هيئة عباءة .

وتجدل النسوة شعورهن إلى ثلاث ضفائر واحدة فوق الأخرى وتعلق عند أسفل كل ضفيرة حلياً زجاجية أو المرجان المقلد أو الفضة ، ويجدلن ضفائر طويلة من الجلد الأسود ويعلقن بها أجراساً صغيرة تتدلى خلف ظهورهن .

وعلى قمة الرأس يثبتن قطعة من الحرير أو الصوف وتتهدل خلفهن ويعلقن في آذانهن أقراطاً وبعضهن يعلق اثنين أو ثلاثة . ويصنع القرط من الفضة ، وهو ذو حجم كبير على هيئة حلقات تربطها سلسلة وعقود الزينة تصنع من الزجاج عادة . أما نساء الطبقات الغنية فيلبسن عقوداً من الفضة أكثر سمكاً في بعض الأحيان من الحلقة المعدنية التي يلبسها مجرمو أوروبا .

وتتدلى من العقد حلي فضية منقوش عليها زهور وأشكال عربية أخرى .

وفضلاً عن ذلك فهن يزين سواعدهن بأساور وأرجلهن (عند أسفل

الكاحل) بخلاخيل من الفضة أو النحاس أو الزجاج .

لعلي لا أستطيع أن أمدح أهل سيوه فهم فضوليون لديهم ميل غريزي للسطو ، وكانت خيامنا وعلى الأخص خيمتي ، محاطة على الدوام بهؤلاء الناس ، وكان على تجار القافلة أن يكونوا يقظين لحراسة أمتعتهم خوفاً من أي هجوم عدائي .

سمعت كثيراً عن غنى أهل سيوه ، ولا بد أن نسلم أن بعضهم غني جداً ، فلديهم تجارة واسعة مع مختلف البلدان البعيدة وفي نفس الوقت لديهم فرصة ضئيلة للانفاق بالاضافة إلى أنهم لا يدفعون خراجاً .

ولقد أدى اشتغال السيويين بالتجارة إلى ارتباطهم بعلاقة صداقة مع جيرانهم في الشمال الذين يزورون سيوه دائماً في جماعات صغيرة لشراء البلح .

وقافلتنا « مثلاً » بادلت جزءاً من بضاعتها باللحم والبلح والسلال الصغيرة فنساء سيوه يتميزن بمهارة فائقة في صنعها ويشتغل بهذه المهنة عدد كبير منهن .

أما أمراض هذا المجتمع والتي يقاسي منها معظم السكان فهي الملاريا والحمى وأمراض العيون .

ولغة سيوه بصرف النظر عن المفردات والاصطلاحات التي تسللت اليها خلال تفاعلهم مع المجتمعات الأخرى ليست ذات أصل عربي ، الأمر الذي دفعني إلى عديد من التأويلات لمعرفة أصل هذه اللغة ، ولكني عرفت من أحد رجال الطوارق أن لغة سيوه هي إحدى اللهجات القديمة المنتشرة في جهات متعددة في أفريقيا .

ان الجزء الأكبر من مفردات لغة سيوه التي جمعتها في بادىء الأمر فقدتها لسوء الحظ ، مع أوراق أخرى في حادثة سأتكلم عنها فيما بعد .

والقائمة التالية عرفتها من واحد من السيويين ممن تعرفت عليهم بعد الحادثة في أوجله (Augila) :

Achmar	Horse	حصان
Ickmare	Horses	خيل
Goreck Achmar	Have you a horse ?	هل لديك حصان
Achi	Milk	لبن
Acksum	Meat	لحم
Tagora	Bread	خبز
Tsemur	Oil	زيت
Aman	Water	ماء
Tena	Datas	بلح
Achbén	House	منزل
Gebeun	Houses	منازل
Itjeda	Sand	رمل
Tschatschet	Cap	
Tum - megar	Catacombs	مقابر
Itfuct	Sun	الشمس
Logmam	Clouds	
Achfé	Ear	الأذن
Taun	Eye	
Temauin	Eyebrow	
Itmert	Beard	

Fuss	Hand	يد
Achmum	Penis	
Igum	Camel	جمل
Jelibb	Sheep	
Ftunest	Cow	بقرة
Iddrarn	Mountain	جبل
Aus	Sabre	
Limscha	Sword	

الفصل الخامس

آثار سيوه القديمة

عندما بلغنا المكان المحدد لمبيتنا في وادي سيوه ، لمحت على البعد – في اتجاه الغرب – بعض اطلال لمباني كبيرة على بعد عدة أميال وخمنت أنها هي التي تحدث عنها الرحالة الانجليزي الفقيد « مستر براون » الذي سمعت عن اكتشافاته أول ما سمعت في لندن ثم في مصر .

وحتمت علي الظروف آنذاك أن التصق بحارسي وأن أؤجل اية زيارة أو دراسة لهذه الآثار حتى أحظى بثقة أهل البلاد الذين اعتبروني أنا ودليلي مسيحيين واستنتجوا ذلك من لون بشرتنا الابيض وسلوكنا وملابسنا التركية .

وحين انتهزت فرصة الاضطرابات في القاهرة وضواحيها وتقدمت للقافلة على انني مسلم لم أستطع في الواقع أن اتحدث بطلاقة اللغة العربية أو التركية ولكني توهمت أن شخصيه مملوك صغير يمكن ان تكون عذراً لي .

واستطعت فيما بعد أن اكتسب بعض الثقة من خبرات مرافقي – الالماني المولد – والذي كان قد أجبر على الارتباط بالاسلام فترة طويلة

عندما كان في القسطنطينية وتمنيت ان يكون في مظهره وخبرته حماية لي من غضب أهل البلاد .

وإذا أخذنا في الاعتبار أهمية الرحلة التي أخترت للقيام بها ، وهدفها الكبير لاكتشاف كل افريقيا الشمالية نجـــد أنه ربما كانت من دواعي الحكمة أن تكون علاقاتي محدودة حتى اكتسب المهارات اللازمة للدور الذي اخترته لنفسي ، ولو كنت قد فعلت ذلك وأمسكت عن زيارة آثار سيوه لتجنبت الخطر الذي أحدق بي وهدد حياتي ورحلتي .

وأعترف بأنه لم يكن لدي الصبر الكافي ، ووجدتني أذهب لزيارة تلك الأماكن .

وزرت اول ما زرت اطلال البناء الذي رأيته من قبل ، ودنوت من بعض الذين كانوا يعملون في حديقة مجاورة وسألتهم عما يعرفونه عن هذا البناء وأجابوني قائلين « بأن الكفار كانوا يسكنون سيوه قديماً ومنهم من كان يسكن الكهوف وآخرون كانوا يسكنون هذه الأبنية واشـــار أحدهم الى مبنى في المنتصف وقال بأن هذا هو الديوان الذي كان يجتمع فيه المجلس السلطاني أيام العثمانيين واستطرد يقول : أيام بنائه كان الرجال أقوى مني ، فان هذه الأحجار الضخمة كان يحملها اثنان فقط » . وأضاف يقول « ان هناك ذهباً كثيراً مدفونا تحت الأعمدة » وحينما اقتربت من الاطلال تبعني الجميع وتظاهرت حينئذ برؤية البناء باهمال .

وعندما عدت لتفقد البناء مرة ثانية بعد عدة أيام بادرني أهل سيوه قائلين : انك مـــا زلت بدون شك مسيحي القلب ولهذا تأتي كثيراً لزيارة هذه الأماكن .

وحتى أستمر في أداء دوري كان علي ان اتجنب أية محاولة أخرى للدراسة ، واكتفيت بملاحظاتي السريعة عن تلك الاطلال والتي سأوردها

هنا بالتفصيل .

ان ام البيضاء (Ummebeda) وهو الاسم الذي أطلقه أهل البلاد على هذه الأطلال تقع بالقرب من قرية (شرقي) أو أجرمي وتنبع بين هذا المكان وجبل منعزل بعيد عين غزيرة ذات مياه حلوة .

من الصعب أن يتخيل المرء الصورة التي كان عليها البناء من خلال تلك الاطلال والحوائط المترنحة .

وأغلب الظن أنه شيد منذ عهود سحيقة حينما ترك (ساكنو الكهوف Troglodytea) كهوفهم . وفي محاولاتهم الأولى للبناء حذوا حذو آبائهم في وضع الصخور الواحد فوق الآخر مقلدين بذلك المأوى الذي وفرته لهم الطبيعة من قبل .

اختبرت الموقع العام للمكان بواسطة البوصلة ، ووجدت أن الحوائط الخارجية بنيت حتى تواجه الجهات الأربع مع انحراف يبلغ اثنتي عشرة درجة فقط ويمكن رده إلى تذبذب الابرة ، والمحيط الكلي ، يحتمل أن يكون عدة مئات من الياردات ، ويبدو على البناء بصفة عامة أنه كان متيناً .

وواضح أن السياج الخارجي في معظم الأماكن قد تهدم وحملت بقاياه بعيداً وحفر تحته بحثاً عن الذهب . وفي المنتصف يرى البناء الرئيسي – فيما أعتقد – وما حوله ليس سوى ملحقاته .

ويقوم الجزء الشمالي من البناء على أرض جيرية يرتفع عن سطح الأرض حوالى ثمانية أقدام ، ويبلغ ارتفاع البناء كله سبعة وعشرين قدماً وعرضه أربعة وعشرين وطوله يمتد لاثنتي عشرة خطوة ، ويبلغ سمك الجدار ستة أقدام ، والجدار الخارجي بني من صخور كبيرة الحجم ملئت

فجواتها بحصى صغير .

ويتكوّن السقف من ألواح كبيرة من الحجارة سويت لتغطي البناء كله . ويبلغ عرضها حوالي أربعة أقدام وسمكها ثلاثة والحائط الجنوبي للبناء متهدم وأزيحت بقاياه بعيداً . أما الأحجار الكبيرة التي سقطت من السقف والتي قطعها السكان القدماء ونقلوها من المحاجر لم يستطع أن يرفعها واحد من السكان الحاليين .

ومداخل هذا البناء ثلاثة : الرئيسي منها إلى الشمال ، والآخران أحدهما إلى الشرق والآخر إلى الغرب . والحوائط الداخلية مزينة عند المنتصف بكتابات هيروغليفية ، ويبدو عليها أنها كانت متقنة ، حتى تقاوم الزمن والطقس . وفي بعض الأماكن نجد هذه الكتابات متآكلة غير واضحة وخصوصاً على سقف البناء . وفي أماكن أخرى مختلفة تظهر أشكال ورسوم كانت ذات لون على ما يبدو أخضر .

وعلى بعد خطوات من المدخل الرئيسي رأيت حجرين مستديرين كما لو كانا قاعدتين لتمثال . ومواد البناء بصفة عامة من الحجر الجيري تلتصق بها قواقع وحيوانات بحرية صغيرة متحجرة ويمكن أن تجد مثل هذه الاحجار في المناطق المجاورة .

وبدراسة المكان حول الأطلال وجدت التربة المجاورة للحائط الخارجي الجنوبي تربة مستنقعية وعلمت أن بها عيوناً ملحية وسألت عن عيون المياه الحلوة وأرشدوني إلى احداها وكانت ذات ماء عذب ، وعلى مسافة نصف ميل من البناء تعلو أشجار النخيل وتحتل مكاناً شاعرياً جميلا لم تكن عند أهل سيوه مكاناً بهيجاً أو شاعرياً بقدر ما كانت تلك الأشجار مصدراً للدواء لبعض الأمراض .

وأنا على يقين من أن وصف هذه الأطلال كان وصفاً خاطفاً وغير

دقيق واذا قلنا ان هذه الأشجار ما هي إلا بقايا معابد آمون الشهيرة فلن يشكل هذا سوى افتراض .

ولعل القارىء قد تعرف على الظروف التي منعتني من متابعة الدراسة لهذه الآثار العظيمة والتي أتمنى أن اقوم بها .

وبالرجوع إلى ما كتبه الكتاب الأولون فان المقارنة تجعلني أتمسك بالفكرة التي ذهبت اليها واستناداً الى أدلة عديدة يمكنني أن أقرر أن سيوه كانت مقراً للمصريين القدماء ، (Ammonites) ولقد بنيت اعتقادي هذا على مكان سيوه النسبي وطبيعة أرضها وخصوبتها ومن المعلومات المستقاة من سكانها ، والقائلة بأنه لا توجد أماكن خصبة أخرى قريبة . وفضلاً عن ذلك تلك الأبنية العظيمة التي توجد في هذا المكان .

وفيما يتعلق بمعبد آمون الشهير وبالرغم من عدم تشابه الآثار الموجودة له الا انني متمسك باعتقادي بأن هذه الآثار ربما كانت هي معبد الاله آمون ، ويدعم فكرتي هذه وجــود الكتابات الهيروغليفية على الحوائط الداخلية للبناء .

وعندما سألت عن « سانتريش » (Santrich) الذي تحدث عنها الادريسي لم أجد أحداً يعرفها ولكني علمت أنها على بعد سبعة أيام من سيوه وستة من الفيوم ويومين أو ثلاثة من « بلجرادك » (Biljoradec) إذ توجد منطقة مشابهة لسيوه . ويمكنني ان اعتبر ذلك المكان المركز الثاني للقدماء المصريين .

وانني إذ أتحدث عن هــذا المكان فان ما عرضته ليس مبنياً على ملاحظات شخصية وانما من خلال احاديث الناس وربما يرقد بين الجبال التي تقطع الصحراء العظمى وتمتد على طول الجنوب بالقرب مــن « أم الصغير » .

وإذا استطعت أن أفهم ما قاله رفيقي السيوي فهناك أربعة أماكن رئيسية أولها (Balled E'-Kaffer) والثاني (Balled El-Rumi)، وكل من التسميتين السابقتين يدلان على معنى واحد وهو مكان أو مدينـــة الكفار، والمكان الثالث هو « الموتى » (El-Motta) أو مكان الدفن والأخير « بلد الشمس » (Balled El-chamis) غير ان اهتمامي كان موجها بالدرجة الأولى إلى « الموتى » وهي تقع على مسافة ميل شمال شرق سيوه .

والموتى مرتفع صخري توجد على جوانبه عديد من المقابر والكبير منها يوجد على القمة ولكل مقبرة مدخل خاص بها ويؤدي إليه منحدر غير صعب .

ويؤدي المدخل إلى دهليز ويؤدي بدوره إلى حجرة ويوجد على كل جانب منها تابوت يحتوي كل منها على مومياء .

وتشير الأحجار المرفوعة عند الباب إلى أن الباب رفع حديثاً وأن المدخل قد أغلق .

وتختلف أحجام المقابر كبراً وصغراً، وقد بني كل منها بمهارة وعناية وخصوصاً عنـــد الأجزاء العليا والتي لا تحتوي على موميات . وتوجد بقايا آدمية في أماكن أخرى، وحاولت عبثاً العثور على جمجمة كاملة ولم أجد، وكل ما عثرت عليه هي عظمة مؤخرة الرأس، وكل البقايا بصفة عامة عارية . وبالنسبة لتلك العظام لم يكن بها أي أثر يدل على أنهـــا كانت مغطاة بمادة « الرانتج » وما زالت بعض اللفائف ملتصقة بالضلوع ولكنها متحللة جداً ولا يمكن أن تميز أي شيء سوى أن هذه الموميات غلفت بقماش سميك .

وقد حفر الأهالي أرض المقابر بحثاً عن الكنوز وأخبرني دليلي أن

الذهب موجود في بعض المقابر ، وقد وجد بعضه بالفعل .

وهناك احتمال كبير في أن يكتشف عدد من المقابر على مسافة بعيدة غرب سيوه . ومن مصدر موثوق به علمت أن الى جانب المقابر الموجودة على الجبال يوجد عـــدد كبير منها تحت سطح الأرض تحت عمـق غير كبير .

وتوجـد « بيوت النصارى » (Biut - el - Nazari) وتعني منازل الكفار على جانبي نفق طويل تحت الأرض يصل ما بين جبلين .

والمقابر التي بنيت على « جبـل البلد » (Gibel - el - Belled) وهو الجبل الذي بنيت عليه سيوه ، صغيرة وتؤدي إلى كهفـين حيث ترقد المومياء .

ويوجد كهفان آخران أكثر شهرة على الجانب الشمالي واحـــد منهما تبلغ مساحته عشرين قدماً مربعاً والآخر ستة عشر قدمـاً ، والاثنان واجهتهما ناحية الشمال .

ويوجد غرب سيوه كهفان آخران بنفس الأبعاد يؤديان إلى « أوجله » (Augila) .

وقبل أن نترك حديث الآثار أود أن أضيف أنه توجد عند أقرب الوديان غربي سيوه بعض بقايا أبنية وليس هناك ما يدل على وجـــود آثار بها كالتي وجدت بالقرب من المبنى الذي تحدثت عنه مؤخراً .

الفصل السادس

الرحيل من سيوه والسفر إلى «شياشة» والأخطار التي تواجه المسافر هناك

بعد أن أمضينا ثمانية أيام في سيوه ، وفي التاسع والعشرين من سبتمبر وفي الثالثة بعد الظهر ، استأنفنا الرحيل ، وبعد مسيرة ثلاث ساعات عسكرنا مرة أخرى بالقرب من أحد التلال ، وفي اليوم التالي بدأنا الرحلة متأخرين ولم نغادر المكان حتى الساعة الواحدة بعد الظهر .

وأضعنا الوقت في البحث عن أحد العبيد الذين ينتمون إلى سلطان فزان وكان قد فر من القافلة وفيما كان البحث دائراً عن الرجل عنّ لي أن أنقب عن بعض المقابر التي لمحتها على التلال القريبة ومضيت اليها واعترضتني بحيرة محيطها سبعة أو ثمانية أميال انحسرت المياه بها بفعل العيون والمجاري المتكونة من الأمطار ، وعدت إلى المعسكر وأخذت التليسكوب لأستعرض الأماكن التي لم أتمكن من رؤيتها عن كثب ، ولقد كان أول ما رأيت هو ذلك العبد الهارب ، ولم أشأ أن أخبر أحداً بذلك فالمسكين كان وديعاً طيباً ولم يكن ليفر لولا قسوة صاحبه عليه ، وينتابني الألم حينما أقول انه ليس ثمة فرصة كبيرة لهربه ، فقد وعد السيويون بتسليمه .

وفي ذلك اليوم سرنا حتى ما بعد غروب الشمس وفي اليوم التالي

كانت مسيرتنا قبل الفجر بساعتين حتى الساعة التاسعة . وفي اليوم الرابع بلغنا وادي « شياشه » (Schiacha) الخصيب .

والجبال التي صاحبتنا في رحلتنا من سيوه حتى هذا المكان هي امتداد للجبال التي تحدثت عنها من قبل ، والتي كانت تظهر لنا معظم الوقت شمال طريقنا خلال الصحراء وبالقرب منه .

وتظهر الجبال ناتئة حـــادة من الأرض المنبسطة وتبدو كأنها مجرد صخور بلا غطاء رملي أو شيء آخر .

ما أشبه هذه الجبال يلفها هذا البحر الخضم من الرمال بمكان تعرض لفيضان كبير قبل مدة قصيرة .

وهناك في الوادي الرملي تحت أقدام هذا الجبل تتترامى مساحـات شاسعة من صخور جيرية خاليـــة من أية بقايا حيوانية متحجرة كالتي يزخر بها الجبل الجيري القريب وتتباعد تلك الجبال الصخرية تملأ الأفق .

ووجدت إلى القرب من سيوه كومتين من القواقع المتكلسة يبلغ حجم بعضها أكثر من بوصتين ، وأبلغني دليلي بأنه رأى على مسافة من الطريق جبلا عالياً منفصلا عما حوله يتكون كله من القواقع .

وتغطي هذه الصحراء الشاسعة عدد كبير من الهضاب الصغيرة قوامها حجري مدعم بمادة صخرية هشة وتكون في الغالب شكلاً هرميـــا . وهي تبدو قريبة ولكن عبثاً حاولت أكثر من مرة أن أصـل اليها .

لقد كان مهندسو القدماء المصريين عمالقة وان من بنى هذه المشاريع المذهلة لا بد وان يكون قد فكر في تحويل تلك التلال الى اهرامات . ولقد أثار بعض المثقفين رأياً يقول ان اهرامات الجيزة وسقارة لم تبن كلها ولكنها كانت هضابـاً أو جبالاً حجرية وأكملها وغطاها القدماء .

وتبدو هذه الفكرة مقبولة ظاهرياً بالرغم من انها قابلة للجدل ، بناء على

حجج كثيرة مستقاة من الدراسة التاريخية ومن مصادر الحقائق الأخرى .

سأسرد عليكم فيما يلي وقائع حادثة وقعت لي ، سأسردها بالتفصيل لأن نتائجها ترتبط ارتباطاً وثيقـــاً بمستقبلي ومستقبل المشروع الذي اخترت له . ولقد كان لهذا الحادث أثر كبير في تدعيم ثقتي بنفسي مما يملأني بالتفاؤل لانجـــاز مشروعي العظيم . وهذا الحادث – في نظري – سيرضي الذين اختاروني ووطدوا آمالهم الكبار علي .

لقد تبخر فجأة الهدوء والطمأنينة الذي لازم رحلتنا منذ البدايـــة وبينما نحن في « شياشة » وفي الثامنة مساء حمل الينا أهل سيوه أنباء تقول ان حشوداً من البلاد المتاخمة للفيوم يحومون في الصحراء استعداداً للهجوم علينا .

وأكد لنا هؤلاء الرسل أن أهل سيوه قد وطدوا العزم على مساعدتنا ومرافقتنا حتى أقرب واحة وأضافوا قائلين ان جيشاً صغـــيراً سيصل خلال ساعات ليشاركونا المخاطر ضد هؤلاء البدو الذي يتكون حشدهم ما بين ثمانمائة رجل إلى ألف رجل . وجمع شيخ القافلة الرجال على الفور وقرروا أن ننتظر البدو في موقعنا ، وحالما انفض مجلس القافلة إذ سمعنا نهيق الحمير معلنة قدوم السيويين « يستخدم السيويون الحمـــير عادة في حروبهم حيث يسهل اقتيادها خلال الطرق الوعرة الضيقة سواء في الهجوم أو الهروب بينما يختار العدو عادة الطرق الأقل وعورة لتناسب دوابه » .

وامتطى بعض رجال القافلة خيولهم وأسرعوا ليخبروا السيويين أن يقفوا على مسافة نصف ميل منا وأمضينا الليل كله في ترقب وانتظار يحمل كل منا سلاحه استعداداً للمعركة .

وقبيل شروق الشمس جاءنا بعض السيويين على الأقدام وأحسسنـا بذلك بقرب الهجوم ، واتجه اليهم بعض رجال أوجله لمعرفة الخبر ، وقيل

لنا بعد ذلك أن القافلة بمأمن من الخطر ، ولكن شيخ القافلة كان حذراً وأعاد الرسل بعد أن أخبرهم أننا سنعتبر هؤلاء الناس في حكم الأعداء إذا تقدموا نحونا خطوة واحدة . وأثر هذه الرسالة عسكر السيويون على هيئة دائرة واستدعوا بعضاً من أهل أوجله لعقد اجتماع . واثناء ذلك كله بقيت قريباً من حاجياتي وأرسلت تابعي لاستقصاء الأخبـــار ، وحينما عاد خمنت من مظهرة وعجلته أن في الامر شيئاً وجريت نحوه فبادرني قائلاً : لعن الله اللحظة التي قررت فيها ان أقوم بتلك الرحلة ، فنحن هالكان لا محالة فقد اعتبرونا مسيحيين وجواسيس وسنموت بكل تأكيـــد ، وهرول إلى الحقائب حيث بدل بندقيته الصغيرة ببندقي الكبيرة وتسلح بمسدسين . وحاولت أن أثنيه عما يعتزم وقلت له : ان التصرف العاقل سيحمينا ويحمي اصدقاءنا وان في تصرفه هذا اثارة للشكوك ، وأضفت أقول له : انه بمأمن من الخطر فقد أمضى اثنتي عشرة سنة كمسلم ويعرف جيـداً عاداتهم ومعتقداتهم أما الخطر فيحدق بي وحدي ونصحته – حتى يسلم هو – ان لا يدافع عني .

واجابني قائلاً : صديقي لن يكون هناك خطر ، ولكنك ستدفع ثمن طيشك واندفاعك .

وحين تأكد لي أن الخوف قـــد جرده من الشجاعة تركته لشأنه ومضيت أعزل السلاح ، بخطوات ثابتة حيث ذلك الجمع الصاخب . وحين بلغتهم القيت عليهم التحية الاسلامية « السلام عليكم » ولكني لم أتلق رداً من السيويين وصاح بعضهم قائلاً : « أنت مسيحي وقد جئت تكتشف بلادنا » ولو كنت وقتها أكثر علماً بالعادات والتقاليد لاستطعت أن أتفاهم معهم .

وقررت انني حقيقة من القاهرة جئت هرباً من الكفار وجلست

ووجهت حديثي لأحد الشيوخ ذوي المكانة وكان قد تردد على خيمتي كثيراً حينما كنا بسيوه وقلت له : « أخبرني يا أخي » هل سمعت في حياتك ان ثلثمائة رجل يجدون في البحث ثلاثة أيام عن رجلين عاشا بينهم عشرة أيام وشربوا وأكلوا معهم كأصدقاء ؟ لقد وجدتنا أنت نصلي ونقرأ القرآن ، وتدعي الآن أننا كفار من القاهرة ، ألا تدري انها خطيئة كبرى ان تقول لمسلم انك كافر » قلت ذلك بلهجة مؤثرة وبدا على معظم الحاضرين أنهم تأثروا بذلك . وخيل إلي أني كسبتهم إلى جانبي . وأجابني الرجل : « أنا مقتنع أنكما مسلمين ولم أخبر أحداً بغير ذلك وأشعر بالسعادة الآن أن أترككم تتابعون الرحلة لأعود أنا إلى سيوه » .

حينئذ استدرت إلى واحد ممن كانوا يتناقلون الاتهامات ضدي وقلت له ، لتصمت ، حمداً لله ، أني أستطيع التحدث باللغة العربية وقادر على أن أجيب عليك وعلى مائة من أمثالك الذين لا يعرفون الإسلام قدر ما أعرف « وردد شيخ عجوز »! ان هذا الرجل أصغر من الآخر ولهذا فهو أكثر شجاعة منه « وقلت على الفور » ان صديقي ليس خائفاً منك ، ولكنك أنت الذي يجب أن تخاف منه ، ألا تعرف ماذا يعني اتهام واحد ممن عاشوا مع السلطان والأمراء بأنه كافر » .

وسألني أحدهم : « لماذا اذن تحمل أوراقاً مسيحية ؟ » وخمنت لتوي أن دليلي قد أظهر لهم تأشيرة المرور التي حصلنا عليها من الجنرال بونابرت حين كنا نمر من البوابات التي يحتلها الفرنسيون .

وفي هذه اللحظة ظهر دليلي ووجدني ما زلت على قيد الحياة ووجد الحشد أقل غضباً وهياجاً عما كانوا عليه فراح يضايقهم بأسئلة محيرة ومعقدة ، وسرعان ما تمالك نفسه ، وأخذت أشرح له ما حدث باللغة

العربية والألمانية .

ولما كنت على يقين أنهم سيسألونني عن الأوراق ، ذهبت بنفسي إلى الخيمة لاحضارها . وأحضرت معها القرآن أيضاً ، وسارعت بإعطاء تلك الأوراق إلى رئيس السيويين ، وحين فتحها لم أستطع أن أكتم ابتسامتي بالرغم من دقة الموقف حين قال : « هل منكم من يستطيع أن يقرأ هذه الأوراق ؟ » . وسألنا نفس السؤال وأجبنا بأننا لا نفهم ما تحتوي ولكننا علمنا أنها ستجعل من هروبنا من القاهرة أمراً سهلاً . وقاطعني دليلي صارخاً : « هذا هو الكتاب الذي أفهم » وأخذ القرآن من يدي وأمره البعض أن يقرأ بعضاً منه ليثبت أننا مؤمنين ، ولقد كان ذلك أمراً سهلاً أمام ما تعلمناه بالاضافة إلى أن دليلي يحفظ القرآن عن ظهر قلب ، وبالنسبة لي فقد كنت أستطيع قراءة اللغة العربية وكتابتها وكان ذلك أمراً يعتبره هؤلاء الرجال أمراً غير عادي .

وحين أفرغنا كل ما في جعبتنا تكلم شيخ القافلة لأول مرة وانحاز إلى جانبنا وناصرنا كثير من أهل سيوه أيضاً وباختصار فإن المسألة انتهت لصالحنا .

وهكذا استطعت أن ألعب دور « المسلم » تماماً ولن تعترضنا مثل هذه الأزمات مستقبلاً والتي يحتمل أن تودي احداها بمستقبلنا وحياتنا .

أما الآن فقد أمنت مستقبل رحلتي وكسبت أكثر مما خسرت من تلك الحادثة .

وحين كنت في المجلس مع أهل سيوه وباقي رجال القافلة دفع الخوف صاحبي فأخذ المومياءات والمذكرات التي دونتها عن الطريق من القاهرة حتى شياشة وكل الكتب وأعطاها إلى أحد العبيد الموثوق بهم لاخفائها . والذي حدث أني لم أتمكن من استرجاعها بعد ذلك مطلقاً .

الفصل السابع

« الرحيل من شياشة ـ والوصول إلى أوجله »

في اليوم الخامس عشر (منذ رحلنا من سيوه) تركنا شياشة وسافرنا لمدة أربع ساعات قبل أن نعسكر ، وفي الصباح التالي وبعد مسيرة ساعتين ونصف بلغنا منطقة تسمى « ترفق » (Torfauc) حيث توقفنا للحصول على ماء . وغادرنا هذا المكان في الساعة الرابعة بعد ظهر نفس اليوم واستأنفنا المسير حتى الثامنة من صباح اليوم التالي خلال صحراء شاسعة تعترضنا في بعض الأحيان تلال رملية عديدة .

وفي الثامنة توقفنا للراحة حتى الساعة الثانية بعد الظهر حيث استأنفنا السير حتى الثانية صباحاً وعسكرنا حتى الواحدة ظهراً وواصلنا المسير حتى الثالثة من صباح اليوم التالي حين اكتشفت المجموعة التي أسافر معها أنها فقدت القافلة .

واستقر الرأي على أن نستريح حتى الصباح ووضعنا الأحمال إلى جانب الجمال حتى تستريح ، واسترخيت على الرمال والبندقية في يد والأخرى تمسك باللجام ورحت في سبات عميق حتى شروق الشمس وحين نهضنا اهتدينا إلى القافلة واكتشفنا فيما بعد أننا على مسافة نصف ميل من مكان خصيب يزخر بالماء وعمدنا على الفور إلى المكان وعسكرنا هناك .

وكانت الرحلة من « ترفق » إلى هذا المكان أكثر رحلاتنا تعباً وارهاقاً على الاطلاق ، فقد حل التعب بالرجال والدواب على السواء وما أن أنزلت الأحمال حتى راح الجميع في سباتهم .

وأمضينا في هذا المكان طيلة اليوم وفي اليوم التالي مضينا إلى أوجله بخطوات بطيئة إذ لم نكن على عجل ولا يضايقنا أي شيء ، كيف لا ؟ ونحن الآن في بلد صديق .

وكان دخولنا « موجابرا » (Mojabra) وهي أحد بلاد ثلاث تتبع أوجله كان الاستقبال مهيباً ومؤثرا فقد كان لعدد كبير من رجال القافلة أسر وأصدقاء في هذا المكان .

ولما كان « بك » بنغازي وهو ممثل « باشا » طرابلس مقيما في أوجله آنذاك فقد بعث الينا بعشرين من رجاله لمعرفة حمولة الجمال لتقدير الضريبة عليها .

واصطف رجال « البك » عن يميننا وانتظم راكبو الخيول على اليسار وتجمع الحجاج والعرب الآخرون في المنتصف وسار في المقدمة شيخ القافلة يسبقه علم أخضر وتعالى غناء الحجاج ورقصت الخيول هكذا حتى اقتربنا من « موجارا » (Mojara) حيث سارع عدد غفير من المسنين والصغار للقائنا ولاستقبال اقربائهم وكانوا قد اعتبروهم في حكم المفقودين حينما سمعوا بغزو الفرنسيين لمصر .

ونصبنا خيامنا في مكان قريب من المدينة وقضينا يوما حافلا في ضيافة أهلها . وفي اليوم التالي مضيت في رحلة يرافقني اثنان من التجار أحدهما كان قد استضافني للمبيت حين وصلنا المكان .

ويوجد ثلاث مدن بالقرب منا . أوجله العاصمة وموجابرا (Mojabra) وميلديلا (Meledila) والبلدتان الاخيرتان متقاربتان وكلاهما يبعد حوالي

أربع ساعات من أوجله .

وتقع موجابرا الى الجنوب وميلديلا شمالي الطريق وتعرف موجابرا وميلديلا باسم « فالو » (Fallo) وأوجله معروفة منذ عهد هيرودیت وهي تغطي منطقة يبلغ قطرها ميلا واحد .

والبلدة مشيدة بطريقة بدائية ، شوارعها ضيقة وقذرة وبنيت المنازل من الحجارة وتتكون من طابق أرضي واحد ، وهي مظلمة لا يدخلها الضوء الا من الأبواب وتنتظم الحجرات حول ردهة حيث يتقابل أبوابها بغية توفير الاضاءة .

والمباني العـامة - نسبياً - صغيرة متواضعة وبالرغم من ضيق موجابرا الا أنها تبدو أكثر سكاناً من أوجله .

ويعمل معظم سكان ميلديلا في الزراعة في حين يعمل معظم سكان موجابرا بالتجارة ما بين فزان والقاهرة .

ويحتفظ الرجال بثلاث منازل في العادة ، واحـد في « كاردافي » بالقرب من القاهرة ، وآخر في موجابرا ، والثالث في زيـلا وأحياناً في مرزق . وبكل منزل زوجـة وأولاد . وإذا رغبت القافلة أن تظل ببلدة مدة طويلة فيمكن أن يختار رجالها زوجات أخريات .

ويكرس الرجال حياتهم من سن مبكرة في الترحال ، هـذا وقد صحبنا صغار ما بين الثالثة عشرة والرابعة عشرة طيلة طريق شاق من عجيلة حتى فزان سيراً على الأقدام أغلب الوقت .

وبدراسة أخلاق الذين رافقوا القافلة من أوجله والذين يعملون بالتجارة لا أستطيع سوى أن أذكر الانحطاط الفكري والخلقي والأنانية ، ويرجع هذا إلى عاداتهم الأولى وتجاربهم التافهة التي كانوا يمارسونها وعلى العكس نجد هؤلاء الذين يعيشون في المدينة .

وبينما نجد رجال هـــذه المنطقة يعملون بالزراعة نجد نساءها أكثر انتاجية فهن يصنعن قماشاً صوفيـاً يبلغ طول القطعة منــه خمسة ياردات وعرضها ياردة أو نصف ياردة وتسمى (عباءة) لباسهم الرئيسي ، وهم يلفون أنفسهم بها دون أن يلبس تحتها أي شيء آخر .

وفيما حول أوجله نجد الأرض منبسطة تربتها رملية وهي خصبة حينما يصيبها الماء الكافي .

ويزرع القمح بكميات أقل من حاجة السكان ولذا فان أهل بنغازي يستوردون الذرة والشعير سنوياً من منطقة تبعد ثلاث عشرة ليـــلة . وتصطحب القوافل قطعان الماشية لبيعها وشراء الغلال .

ويتحدث سكان هذا الاقليم العربية ولهم لهجـــة أخرى تقترب من لهجة أهل سيوه والتي تحدثنا عنها من قبل .

الجزء الثاني



الفصل الأول

من أوجله الى مشارف تمسه

عندما وصلنا أوجله أرسل شيخ القافلة بأحدهم ليكتشف مواقع المياه حتى حدود فزان . وقد كان لهذا الاحتياط أهميته نظراً للعدد الكبير من الرجال والدواب التي تضمهم الرحلة . ونظراً لأن عيون المياه المتاحة في الطريق المعتاد لا تكفي لمواجهة احتياجاتها .

وعاد الرسول في اليوم الثاني عشر بأخبار مبهجة فالماء يوجد بوفرة ولا شيء يعوق القافلة .

وحدد يوم ٢٧ أكتوبر ليكون يوم رحيلنا من أوجـــله وتركت مجموعتي البلدة الليلة السابقة للرحيل وعسكرنا في الهواء لنكون في مقدمة القافلة ، وفي الصباح التالي نهضنا قبل شروق الشمس واتجهنا ناحيـــة جنوب الغرب .

وانضم الى قافلتنا حوالي ١٢٠ رجـــلا من تجار بنغازي ، ميروت (Merote) وموجابرا ، وصاحبنا عدد كبير من سكان أوجله وفالو ، الى مسافة قصيرة لاظهار شعورهم الطيب ورقصت جيـــادهم وأطلقت بنادقهم تحية الوداع .

ولم تكد القافلة تأخذ طريقها حـــين اتجه الينا عربي يمتطي حصانه

وقال ان عدداً كبيراً من الخيول تتبعنا وربما كانوا على مقربة منا وعلى الفور تحركت الجمال بعيداً وغطى الرجـال المسلحون انسحاب القافلة ، وعندما اكتمل استعدادنا للقاء العدو عرفنا أن الخيول هي خيول « بك » بنغازي والمقيم بأوجله كما أسلفت الذكر ، جاءوا على الفور حينما سمعوا طلقات البنادق وحسبوا أننا هوجمنا .

واستأنف الركب المسير حتى غروب الشمس ، وكل منـــا يتباهى ببسالته وبطولاته السابقه وعما كان يمكن أن يفعله لو أن جنود « بك » كانوا أعداء .

وعسكرنا في المساء في منطقة صحراوية خالية من الماء وقاحلة تماماً ولا يوجد بها عود أخضر واحد لغذاء الجمال واضطررنا أن نطعمها مما نحمل .

وفي اليوم التالي مشينا اثنتي عشرة ساعة عـبر وادي تغطيه صخور كلسية ناعمة ويبدو عارياً بعض الأحيان ويغطيه في الغالب طبقـــة من الرمال البالغة الصغر .

وفي صباح اليوم الثالث تبدل المنظر فبدت التلال تنهض هنا وهناك وتغيرت صورة الصحراء المنبسطة وتوالت الآكام والهضاب تبدو كما لو كانت من صخور كلسية تجمع حولها الرمال بفعل الرياح .

وتنتصب في هذه المنطقة سلسلة من الجبـــال تسمى « موراش » (Moraije) تمتد بعيداً ناحية جنوب جنوب الغرب وتتفرع تجاه الشمال .

وفي هذا اليوم عسكرنا قبل المغرب بساعتين في انتظار عودة رجال الـ (Twaters) الذين تركوتا عند الظهر بحثاً عن الكلأ .

وخيمنا على قمة أحد التلال ، وتحت أقدامنا تتبعثر أعـداد كبيرة من القواقع المتحجرة والأحياء البحرية الميتة المغلفة بالحجر الجيري الناعم .

وفي اليوم الرابع نهضنا مبكرين على أمل الوصول إلى مكان مـــا

حيث يفزر الماء .

وكانت المرحلة الأولى لرحلة اليوم ، عبر وادي فسيح على قمة أحد الجبال ، وكان الصعود من الشرق رقيقاً وهيناً . وعند هبوطنا ناحية الغرب كان الطريق وعراً ومستنقعيـــاً ، وهو يسمى عند العرب « ندك » (Neddeck) ولم يكن طريق الهبوط نشعا فقط بل كان ضيقاً لدرجة اضطرت معها القافلة الى أن تنتظم في صف واحد ، جمل تلو الآخر . ويبلغ ارتفاع هذا المرتفع ثمانين قدماً وعند الحافة كان المنظر رائعاً .

وانبسط الوادي أمامنا ، لا تبلغ العين مداه ، ويبـــدو خادعاً في بعض المناطق ، بفعل أشعة الشمس حيث ترتمي أشعتها عبر الجبال التي تسير عليها .

وبدت أمام ناظرينا منطقة مليئة بالصخور . وتبدو الفجوات مخيفة بظلامها القاتم ، وتتسلل أشعة الشمس فيبدو لمعانهـــا وبريقها وسط الظلال مخيفـــاً ويحدث ذلك أثراً بالغاً في نفوسنا بينما نسير عبر طريق وعر في طريقنا الى الوادي الذي يربض تحت أقدامنا أسفل الجبل .

واخترت لنفسي طريقـــاً وعراً خلاف طريق القافلة الضيق ، وحين بلغت السفح ، رأيت قطعة من الخشب المتحجر يبلغ طولهـــا قدمين وعرضها ثماني بوصات . ولقد كانت أول ما رأيته من بقايا متحجرة في هذه المنطقة . وعلى البعد تنام على الوادي أحجار هائلة لعلها ترقد هناك منذ عصور الطوفان ، الذي أفترض أنه غمر هذه المنطقة منـــذ زمن بعيد ، ربما بعد الطوفان الكبير الذي أشرت اليه في ملحق الكتاب .

وألقيت نظرة على « الندك » فبدأ مظهره بتشكيلاته الصخرية القاسية كما لو كان يؤكد فكرة الطوفان الذي جاء من الغرب .

وسارت القافلة عبر الوادي تحوطنا الجبال وبدا الوادي أكثر اتساعاً ويسمى « سلطان » (Sultin) . وبعد مسيرة استغرقت عشر ساعات وعنـد الواحدة ظهراً عسكرنا في هذا الوادي حيث المـاء الوفير وملأنا قرب المياه للأيام التالية .

وأمضينا في هذه المنطقة الصحراوية اليومين الخامس والسادس وحولنا رمال لا نهاية لهـا . والصحراء قاحلة بالرغم من وجود بعض العيون بها وفي اعتقادي أن ماءها مرّ ولهذا فان العرب لا يحفرون آبارا في هذه المنطقة .

وانتهى بنا اليوم إلى طريق تحفه التلال ، وفي المساء بلغنا منطقة تمتلىء بأشجار النخيل وفي ظلالهـا عسكرنا ، واستأنفنا المسير وسط النخيل كأنه بستان ، لعلها أجمل منطقة مضينا بها خلال هذا اليوم ، وخلفنا هذا المكان وراءنا لتمتد صحراء لا نهاية لها أمامنا تتبعثر على سطحها التلال والصخور الكلسية الجرداء . وانتصبت أمام عيني فجأة جبـال الهاروج (Harutsch) ويعرفها المسافرون برهبتها ووحشتها .

وتتدافع المشاعر المفزعة عن مخاطر الطريق من خلال مـا سمعته ، يؤكدها وحشة هذه الصحراء . وأسرع قليلاً لأختبر جبلاً منخفضا يشبه نتوءا ، وتتكون تربته من صخور كلسية . ويشبه الجبل بصفة عامة شكلا مخروطيا غير كامل ، وتبدو تربة الجبل – من لونها وتشققها – أنها من البازلت الحديدي .

ورويداً رويداً ترتفع الجبال حولنا لتملأ المشهد كله . وعندما اقتربت مني القافلة جلست الى صخرة كبيرة كأنها المنضدة ، بينما أخذت أتناول وجبة رخيصة مما يأكله العرب في هذه المناسبات . وعندما انتهيت كانت

القافلة قد تخطت قمة الجبل واختفت عن ناظري .

ان الطريق أمامي متماسك يمكن منه أن أقتفي أثر القافلة ، وبعد بحث دام نصف ساعة لم يعتريني خلالها أي خوف – اندهشت لأني لم أعثر على رفاقي بعد. وتناولت منظاري المكبر ولمحت عن قرب أربعة من المغاربة ، واتجهت نحوهم وسألتهم عن القافلة فأخبروني أنها عسكرت لتوها قريباً لتطعم الدواب . وأخبروني أيضاً أنهم يبحثون عن ماء . ووددت لو شاركتهم البحث ولكني خفت أن تقلق القافلة لغيابي ، ومن النيران التي أوقدوها استطعت أن أجد طريقي إليهم .

وفي اليوم التاسع سرنا بين تلال رهيبة سوداء وتتلوى القافلة عبر واد ضيق كئيب يتسع قليلاً لتظهر أمامنا بعض الحشائش والنخيل . ويمتد الطريق لنرى وديانا خصبة مثمرة بفعل المطر الغزير الذي يسقط على هذه المنطقة .

وبلغنا عين مياه تكونت بانحسار مياه الأمطار التي تنحدر من التلال وتتجمع من أعلى لتصنع بحيرة صغيرة ترقد إلى جانب الوادي . وتتراءى لنا من بعيد جماعات من الغزلان تركض برشاقة لم تستطع معها أن نصيب احداها :

وأمضينا اليوم العاشر والحادي عشر والثاني عشر في التغلغل في هذه البقعة المخيفة المنعزلة . وكنا نختار طريقنا بصعوبة ، وفي بعض الأحيان كنا نضطر إلى ان نتحول عن طريقنا الرئيسي ونسير في الدروب والمنحنيات وتضطرنا وعورة الطريق أن نسير بتمهل في أحيان أخرى .

واصطحبت أحد العبيد العرب وبعض الـ (Twaters) واتجهنا جنوباً

وكان من السهل أن نسبق القافلة بالرغم من أننا نسير على أقدامنا ، نظراً لما يعوق القافلة في تحركها ، وحيث نذهب نجد الجبال هنا وهناك جبالاً عادية كالتي يراها المسافر عـــادة إلى جانب بعض الجبال الأكثر وحشة ورهبة والتي تظهر للعين أحياناً .

لقد كان اهتمام القافلة أن تختار لطريقها أقلها وعورة ، وعند ظهر اليوم الثالث عشر اجتزنا هذا الاقليم الكئيب لندخل وادياً فسيحاً حيث واصلنا السير لمدة ساعات أخرى . وحين بلغنا بعض الجبال الكلسية المنخفضة وعند غروب الشمس عسكرنا عنـــد مدخل أحد الطرق التي تتعرج بين الجبال .

وفي اليوم الخامس عشر سرت في مقدمة القافلة التي تتكون من فقراء الحجاج ، يسرعون الخطى ليكونوا أول من يطفىء عطشهم من ماء العين التي تقترب منها .

وعندما اقتربنا من العين ، رأيت بئرا نظيفا ينام حوله بعض رجال (Twaters) وجلست قريباً لأعد افطاري حين رأيت رجلا عجوزاً يقترب مني ، وبعد تحية متبادلة أعطيته حفنة بلح وبعض اللحم تناولها شاكرا وقبّل الطعام قبل أن يأكله وعمد الى النبع وراح يعب الماء لفترة طويلة واستغرق في صلاة صامتة ، وأخبرني الرجل أنه منذ ثلاثة أيام لم يكن لديه ما يكفيه من الماء وذكر لى أنه تعدى الستين من عمره وأن هذه هي الرحلة الثالثة له ما بين فزان ومكة ، سافرها دون أن يكون معه أقل قدر من الاستعداد والمؤونة معتمدا على مساعدة الآخرين من الحجاج .

وأمضينا بقية النهار في هذا المكان وهو على بعد أربع ساعات من

فزان (نهاية المطاف) وبعث رئيس القافلة برسول الى مرزق ليعلن وصول القافلة لدى حدود المملكة ويحمل رسالة شخصية من كل تاجر بالرحلة الى السلطان .

والآن وبعد مضي ستة عشر يوما من رحيلنا من أوجله بلغنا مرة أخرى منطقة مأهولة ، وبعد مسيرة تسع ساعات وصلنا تمسة (Temissa) داخل حدود فزان .

الفصل الثاني

ملاحظات حول اقليم الهاروج

تعد صحراء الهاروج الجبلية من أشهر الأقاليم التي زرتها خلال رحلتي وصاحبتني هذه الجبال لمدة سبعة أيام في رحلتي هذه ، ولكن في رحلتي الثانية من فزان إلى طرابلس صادفت مرة أخرى أحد جبال الهاروج وعلمت أنها تمتد إلى مسافة كبيرة غرباً .

وعلمت في مرزق أن هناك جبالاً سوداء تمتد على الطريق المؤدي إلى « بورنو » حيث تشتد البرودة على قممها ، ويحصل أهل فزان من هذه الجبال على الحديد .

ورجحت أن هذه الجبال ما هي إلا امتداد لجبال الهاروج بالرغم من أنه لا توجد أدلة تؤيد ما ذهبت إليه .

ان الانطباع الذي تعطيه هذه الصحراء بقسوتها وتعرجها ووحشتها ، يؤدي بنا إلى افتراض أن سطح هذا المكان قد تعرض لثورة بركانية عنيفة قبل أن يصير إلى ما عليه .

ان التفاوت بين ارتفاع سطح الجبال ليس كبيراً ، والشكل العام للمكان يكشف عن سلاسل متصلة من التلال تمتد في اتجاهات مختلفة وترتفع لمسافة ما بين ثمانية واثني عشر قدماً فوق سطح الأرض وترتفع

هذه الجبال دون تدرج يحوطها أرض نشعه من كل ناحية .

ولقد شاهدت جبلاً يحمل نفس المواصفات يقع في منتصف الطريق شمال طريق القافلة ويسميه العرب « ستريس » (Stres) وكان يبدو كما لو كان قد شق من قمته حتى وسطه . ولقد مُنعت من عمل دراسة عليه ولكن فيما بعد وأثناء توقف القافلة كانت لدي الفرصة لتفقد جبل آخر من نفس النوع .

ويخيل الي أن هذا الجبل مغطى بطبقة من قاعدته حتى قمته ،وتشبه هذه الصخور تلك التي يتكون منهـــا معظم التلال . ويمتلىء الوادي الذي ينهض منه الجبل ، بالتلال تتداخل وتلتقي بعضها البعض كحائط كبير ، وحولها الوادي المنبسط يغطيه رمل أبيض وقد تبعثرت حولـه صخور من نفس المادة التي تتشكل منها هذه الجبال .

ولقد استطعت أن أحصل بصعوبة على عينة من التربة التي تغطيها الرمال وهي تـــبدو كرماد تناثرت من بركان ، ولكني منــذ فقدت الأوراق التي دونت فيها ملاحظاتي لا أستطيع أن اؤكد صحة هذا الرأي .

وبالقرب من هذا الجبل وجدت بعض الحجارة الصغيرة يغلب على لونها الحمرة وتبدو كما لو كانت طوبا محروقاً ، وبعض هذه الحجارة نصفها ذو لون أحمر والآخر لونه أسود ، والجزء الأحمر يختلف عن الأسود في وزنه وكثافته ، فالأسود كثير المسام ويحمل نفس مظهر خبث المعادن .

والصخور التي تتكون منها هذه الجبال تختلف في لونها وكثافتها ، فبعضها ثقيل ومكتنز والبعض الآخر مسامي يمتلىء بالفجوات ، ولم أستطع أن اكتشف بين هذه الصخور أية مواد غريبة .

والطبقات التي تتكون منها الصخور عرضية وفي أحيان أخرى تبدو

مختلطة ، وتتداخل الطبقة الأولى في الثانية والثانية في الثالثة ، وتـأخذ الطبقة أحياناً شكلا مائلا وأحياناً أخرى لا تبدو طبقات على الاطلاق .

وتتكون كل صخرة من جسم صلب واحد مع بعض التشققات تجاه الشمال .

ويوجد في هذا الاقليم بعض عيون الماء وسط التلال والروابي والصخور والوديان ، وبالرغم من طبيعة هذه التربة الرملية البيضاء الا أنهـــا تبدو خصبة تغـــل أشجاراً وعشباً للحيوان وتلوح لي في البقاع آثار أقدام ومظاهر حياة .

وعندما كان يبدو لي أنه لن يضيع مني الطريق كنت أنطلق راكضاً في الوديان الضيقة التي تمتد في اتجاه القافلة ، وحين كان يقودني الطريق إلى ممرات متعرجة ضيقة كنت أشعر بالندم على طيشي وابتعادي عن القافلة مما يجعلني عرضة لهجوم البدو ، لا يحميني سوى سيفي الصغير ومسدسي. وحين أعود للقـافلة يتضح لي أن الخطر لم يكن كبيراً إذ لا يعقل أن يكون هناك لص في هذه المنطقة يفترض أن شجاعـاً يمكن أن يترك قافلته على هذا النحو ، وهو يتوقع مثلاً أن يجد بعض المغاربة البؤساء يبحثون عن الماء .

وفي الطريق وعلى جانب أحد هـذه الوديان الضيقة ، رأيت فجوة بين الجبال عمقها حوالى تسعة أقدام وعرضها خمسة ، وانتابتني المخـاوف لوجود مثل هذه الفجوة بين هذا الاقليم المقفر الحزين وبدت لي كما لو كانت مدخلاً لعالم مجهول غامض أو طريقاً للعالم السفلي .

وأخبرني دليلي أنه في وقت مـــا حين كانت الرحلة تمر في طريق متوسط بين الجبال رأى كهفاً ذا عمق كبير صخوره سوداء ويوجد تحتها طبقة من الصخور البيضاء .

وعندما سافرنا بعد ذلك من فزان إلى طرابلس ، وعلى امتداد جبال الهاروج رأيت بنفسي تلالاً من حجر البازلت تتناوب الظهور مع تلال كلسية – وقد أحضر الدليل عينة من صخور ذلك الكهف الذي رآه ، ولكني أعتقد أنه لم يكن موفقاً في اختياره فلم تكن سوى قطعة من الصلصال .

وإلى جانب الهاروج الأسود توجد جبال الهاروج الأبيض والاقليم المسمى بهذه التسمية تحوطه التلال : والصخور التي تغطي هذا الوادي تبدو كما لو كانت مصقولة وناعمة وتبدو نفس هذه الظاهرة في الصخور التي تظهر أحياناً .

ويوجد مدفوناً بين هذه الصخور نماذج من حيوانات بحرية متحجرة وقواقع صلبة ، وحين تتكسر هذه القواقع فوق بعضها البعض تعطي صوتاً مقززاً ، وتبدو من الداخل كما لو كانت زجاجية .

ويسمي العرب التلال الكلسية العارية والمنخفضة التي تحد الوادي ، « بالهاروج الأبيض » (Harutsch el- biat) وهي من طبيعة مختلفة ، ومما لاحظته يمكن القول أن كل هذه التلال تحتوي على حفريات متحجرة . وبين التلال تنهض الجبال شامخة وسط منطقة مستنقعية . ومادة هذه الجبال من الحجر الكلسي الهش ، تنتشر على سطحه الحفريات سائبة . ويمكن أن تؤخذ بسهولة ، وتحتوي على نماذج متحجرة من المحارات والقواقع والسمك والحيوانات المائية الأخرى . ورأيت رأس سمكة يستطيع حملها رجل بصعوبة ، وتوجد قواقع في الوادي المجاور وبأعداد كبيرة تشبه القواقع التي تحدثت عنها منذ قليل .

الفصل الثالث

الوصول الى تمسة ورحلة أخرى

قبل ساعة من وصولنا تمسة استقبلنا أهلها مرحبين ، مهنئين بسلامة الوصول ، وتهافتت الأسئلة بغير حساب عن الصحة وبـــدا لي تكرار نفس الكلام والألفاظ شيئاً غير عادي ، ولكن سرعان ما عرفت أن ذلك يعكس اخلاقيات وعادات هذا المجتمع . ويقاس الرجل النبيل بعدد الأسئلة التي يبعثرها . واسترعى انتباهي شاب صغير ، حسن الملبس ، وقد اقترب من رجل عربي من أوجله وسلم عليه ، واستبقى يده مدة طويلة في يده وراح يرحب به ، حتى اضطر الرجل أن يعود راكضاً حتى يلحق بأصحابه ، وظن الشاب أنه من غير اللائق أن يتركه سريعاً ، وعلى مدى نصف ميل استمر في ملاحقته ، يجري بجانب فرسه ، وكان كل ما يقال ، كيف حالك ، كيف حال صحتك ، الحمد لله ان وصلت بالسلامة ، سلمك الله ، كيف حالك ... للخ .

وعندما اقتربنا من تمسة ، استعد الحجاج بطبولهم ، وأعلامهم الخضراء ، وشكل التجار مجموعة على رأس القافلة ، ورقصت الخيل ، وقفزت طرباً الى أن وصلنا إلى المكان الذي اخترناه للراحة ، بالقرب من المـــدينة وتجمعت النسوة حولنا يرحبن بنا على الطريقة المعتادة ، وكنا نجيب بطلقات

البنادق في الهواء . واستمر هـــذا الاستقبال الحافل حتى نصبنا خيامنا وسط بستان يمتلىء بالنخيل .

ولقد كان يوماً حافلاً في حياة القافلة وتجارها . وربما لعدة سنوات خلت لم تغادر قافلة القاهرة تنتابها مثل ما ألم بقافلتنا من مشاعر الخوف والرهبة ، منذ أن هجم الكفار واستولوا على أكبر مدينة بأفريقيـــا وقضوا على سلطة المماليك وهـــددوا تجارة العبيد التي تشكل النشاط الرئيسي للقافلة .

ولم تنقض سوى بضعة أيام منذ غادرنا القاهرة حتى ظهرت لنـــا جماعة من البدو وكان ذلك بمثابة انذار للقافلة . ولقد كانت الفوضى منتشرة وازداد البدو جرأة وصلابة وراحوا يسرقون العاصمة ذاتهـــا ، وفي سيوه سمعنـــا عنهم وعن بدو بنغـــازي والقبائل الأخرى ، بالقرب من طريقنا ما بين أوجله وفزان ، رأينا آثار عدوانهم ورأينا مئات من الجمال التي نفقت وتركت لعدم وفرة المـــاء . فلقد كان البدو يسرقون الجيران وتعرضت (تمسة) ذاتها لغزواتهم .

وقد كان هؤلاء البدو في انتظار قافلتنا ، وحينما جاءهم خبر هجوم الفرنسيين على مصر خمنوا أن القافلة لا بد أن تكون قد أجلت .

وما أن وطئنا هذه المنطقة ، حتى ذابت كل المخاطر ، فطريقنا القادم عبر أماكن مأهولة وسط اقليم فزان .

وتمسة مكان غير ذي أهمية هذه الأيام لا يوجد بها أكثر من أربعين رجلاً قادرين على حمل السلاح وقد شيدت القرية على قمة أحد التلال وأحيط بها حائط عال قادر على أن يصد هجمات الأعداء ، ولكن الحائط قد تهدم في أماكن متعددة ، وعلمت أن هناك نقوشاً اكتشفت على أحد الأبنية وذهبت حيث قالوا ولم أجد شيئاً بل وأعتقد أنه لم يكن هناك

نقوش على الأطلاق . والاطلال التي زرتها تحتوي على عدة منازل متهدمة متهالكة بنيت من الحجر الكلسي ، ودعمت بالمونة الحمراء ، وتوضح تلك الأبنية أن أهل تمسة القدماء كانوا أكثر حباً للفن من سكانها هذه الأيام إذ يعيشون بين الأطلال في أماكن تشبه زرائب المواشي في أوروبا.

ويملك أهل تمسة خرافاً ومعيزاً بأعداد كبيرة ، والحمار هو الحيوان الوحيد الذي يستخدم للركوب . ويحيط بتمسة بساتين البلح الذي يشكل الغذاء الرئيسي وينتج القمح ولكن بكميات ضئيلة جداً .

وقد ذهبت في زيارة لتمسة ، وعند عودتي للمعسكر رأيت عدداً من أهل البلاد يبادلون الخراف والبلح بالطباق والحلى النسائية والقماش الصوفي الذي يرتديه معظم السكان .

وأطبق الظلام وهدأ الجميع إلا من تحيـــات متبادلة وأشعل العبيد الصغار والأولاد النيران .

وتقرر أن يكون مقامنا في هذه البلدة قصيراً ، وبعد شروق الشمس في اليوم التالي استأنفنا المسير تلفنا أشجار النخيل من كل جانب وتنبسط الأرض تحت أقدامنا وتتناثر حولنا التلال المنخفضة التي شكلتها الرياح .وتجمع الرمل حول بعض الأشجار فلم يعد يظهر سوى الأغصان العالية منها ، وفي الثانية بعد الظهر بلغنا مشارف زويله وتابعنا السير واخترنا لخيامنا مكاناً يقع إلى جنوب غرب المدينة .

الفصل الرابع

زويله

تعتبر زويله من أهم البلدان التي تقع في منطقة فزان ، وهي تضم عائلة السلطان وأقاربه ، ونصبنا خيامنا على مقربة منها .

واستعددنا استعداداً لائقاً لدخول المدينة ، فلبس العبيد أحسن ما لديهم ، وأمر الشيخ أن تسبقه الأعلام الخضراء تحية للشريف الذي يسكن المدينة ، ومضينا وإذ بكوكبة من عشرين فارساً يمتطون خيولاً بيضاء تتوسطهم راية خضراء تهرول نحونا ، وكانت كوكبة الشريف ، حضر مع ثمانية من أولاده وبعض الأقارب للقائنا ، وخلفهم يلهث عدد كبير من الرجال والأولاد وانضموا إلى القافلة وصاحبونا حتى وصلنا إلى المعسكر وهتافات الابتهاج تعلو وطلقات البنادق تنطلق محيية .

وحضر الينا كثير من أهل زويله بعضهم بدافع من حب الاستطلاع وآخرون للتجارة والمقايضة ، وكان سلوك الجميع سلوكاً ممتازاً وخاصة عائلة الشريف وكانوا يلبسون الزي الطرابلسي وعليه قميص سوداني بديع .

وكانت تجارة القافلة في هذه المنطقة رائجة ، وعلى الأخص مع نساء البلدة اللاتي اشترين سلعاً مختلفة للزينة مقابل اللبن والدجاج .

وزويله تحمل اسم جد الشريف ، ولقد كانت فيما مضى مكاناً أكثر

أهمية وكانت مساحتها ثلاثة أضعاف ما عليه الآن . وأخبر أحد أفراد عائلة الشريف أن زويله كانت منذ عدة قرون مستقراً للسلطان وملتقى القوافل وإلى الآن مـــا زالت تسمى الرحلات إلى فزان بالرحلات إلى « سيلة » .

ومساحة المدينة ميل واحـــد – مثل أوجله – منازلها من طابق واحـــد . وتضاء الحجرات من فتحات الأبواب ، وبالقرب من وسط المدينة توجد أطلال بناء من عدة طوابق ، حوائط سميكة ، وقيل لنا انه كان قصر السلطان ، وبالقرب من الحائط الشمالي للمدينة ينتصب مسجد قديم هدمته السنين ، وينهض كأحد أمجاد زويلة القديمة ، وهو يضم بهواً واسعاً رائعاً تحوطه الأعمدة الرخامية العالية . وعلى مقربة من المدينة تظهر آثار بناء شامخ يحوي رفات الشريف الذي قتل في معركة حين هاجم الكفار المكان .

وزويله مكان خصب تحيط به بساتين النخيل من كل جانب ، وواضح أن السكان يهتمون بالزراعة بعكس المناطق المجـــاورة . وفي المساء كان دليل آخر على كرم العرب حين أرسل لنا الشريف مع خدمه طبقاً من اللحم والحساء وعشرة أرغفة لكل خيمة وأرسل ثلاثة أرغفة أخرى للافطار .

ولقد كانت تلك عادة قديمة ، ما زال يتمسك بهـــا الشريف عند وصول أي قافلة .

الفصل الخامس

رحلة أخرى والوصول إلى مرزق

تركنا « زويله » المضيافة في الصباح الثاني ، ومررنا خلال بستان يزخر بالنخيل حتى بلغنا وادياً واسعاً سرنا به سبع ساعات إلى أن وصلنا « حميرة » (Hemara).

وحميرة بلدة صغيرة قليلة السكان فقيرة المظهر بالرغم من خصوبة الوادي حولها . وفي هذا المكان ولأول مرة شربت المشروب المسمى « لوجبي » (Lugibi) وهو يصنع من الجراد ويضاف إليه عصير النخيل ، وهو لذيذ الطعم حين يكون طازجاً ولكنه يملأ البطن بالغازات ويصيبها بالاسهال إذا كان غير طازج .

ولم استسغ طعم الجراد بادىء الأمر ولكني حين جربته أصبحت مغرماً به ، وعند الأكل تنزع الأجنحة والأرجل وينظف الجسد ، وهو يشبه الرنجة الحمراء ولكنه أطيب طعماً .

واستأنفنا السير قبل شروق الشمس في اليوم التالي واخترقنا وادياً ينهض النخيل الى جنوبه حيث يوجد عدد من القرى الصغيرة . وكان نائب سلطان زويله يرافقني وذكر لي أنه اختارني لأنه ليس من اللائق أن يصاحب التجار .

وعندما تركتة ولحقت بصحابي وجدتهم في فرح وسرور بالغين لقربهم من المكان الذي يضم أهلهم وذويهم . وسرعان ما تبدد سرورهم حين التقينا بجند السلطان جاؤوا لاحصاء ما يحمله التجار ولم يكن هذا يحدث عادة الا في مرزق واعتاد التجار اخفاء ثلث ما يحملونه على الأقل تهربا من الجباية واعتاد الآخرون أن يضعوا سلعهم الى جانب حقائب الحجاج لعلهم لا يدفعون خراجاً .

واقترح الشيخ أن نسرع الخطى حتى نلحق بـ « تراغن » حيث بلغناها عند الغروب .

وأمضينا بتراغن طيلة اليوم التالي استعداداً للقاء السلطان ، والذي يحضر عادة لاستقبال القافلة لتهنئة الحجاج العائدين من مكة .

وقبل أن نصل مرزق أرسل الينا السلطان جماله تحمل اللحم والخبز ووزعت على القافلة ، وفي اليوم التالي استأنفنا المسير وبعد ثماني ساعات خيمنا بالقرب من قبر سيدي « بشير » وهو رجل عرف بتقواه مات منذ مدة طويلة وسميت القرية باسمه .

وكان اليوم التالي هو يوم لقاء السلطان وبلغنا بعد مسيرة لمدة ثلاث ساعات مشارف مرزق .

وهكذا انتهينا في اليوم السابع عشر من نوفمبر من رحلتنا الطويلة الشاقة .

ووجدنا السلطان في انتظارنا ، وحوله الحشم والأتباع ، وتوقفت القافلة وترجل كل رجل فيهـــا عن دابته لتحية السلطان واقتربت مع آخرين ووجدنا السلطان يجلس على أريكة عتيقة مغطاة برداء مخطط بالأحمر والأخضر ، وجلس مع الآخرين يحوطه الجند برداء وينم مظهرهم عن الفقر ، ويرتدي السلطان الزي الطرابلسي وفوقه قميص محلى بالفضة على الطريقة

السودانية ويقف بالقرب من السلطان بعض المماليك البيض والعبيد السود تلمع سيوفهم في أيديهم وخلفهم ستة عبيد يحملون رايات قديمة . ودخلنا حجرة السلطان وحسب التقاليد المعتادة خلعنا نعالنا وسرنا حفـاة حتى بلغنا السلطان فقبلنا يديـه الكريمتين نتمتم بآيات الشكر والامتنان ويمر واحد اثر آخر ليجلس خلف السلطان .

ودخل التجار ينتظمون في مجموعتين ثم دخــل شيخ الحجاج تسبقه الطبول وحملة السيوف والرايات الخضراء ويدخل الحجاج منشدين يشكرون الله على سلامتهم ويستمرون في انشادهم حتى يـأذن السلطان للشيخ بالانصراف واعداً إياه بالهدية السلطانية من اللحم والبلح لكل خيمة .

وينتهي الاحتفال ويقفل السلطان عائـداً إلى مرزق تسبقه الطبول ويتقدمه رجاله المسلحون وترقص الخيول وتثب مغتبطة على جانبي الموكب .



الجزء الثالث



« بعض الحقائق عن مرزق - ومملكة فزان »

يبلغ أقصى طول المنطقة المزروعة في مملكة فزان حوالى ثلاثمائة ميل تمتد من الشمال الى الجنوب ، وأقصى عرض لها مائتا ميل تمتد من الشرق الى الغرب . ويحدها أقليم الهاروج الجبلي شرقاً والصحراء جنوباً وغرباً .

ويتبع عرب الجزء الشمالي طرابلس ولكن ولاءهم اسمي اذ هم ينتهزون أي اضطراب أو صخب لرفض سلطانها عليهم .

ويحد فزان من الشرق جبال الهاروج وتمتد خلفها الصحراء وإلى الجنوب والجنوب الشرقي تقع بلاد « التيبو » (Tibboes) وإلى الجنوب الغربي يقطن الطوارق الرحل ، والى الغرب يسكنها العرب .

وتضم المملكة مائة واحدى مدينة وقرية ، ومرزق هي العاصمة ، ويلي هذ المدينة أهمية تبعا لعدد السكان ، سوكنا ، وسبها وهون وودان الى الشمال ، وجاترون (Gatron) جنوباً و « يرما » (Yerma) إلى الغرب وزويله الى الشرق .

وطقس فزان ليس مناسباً وخلال شهور الصيف تشتد الحرارة وحين تهب رياح الجنوب لا يستطيع احتمالها حتى أهل البلاد ، وربما كان الشتاء أكثر اعتدالا ما لم تهب رياح الجنوب التي تهب غالباً في هذا الفصل وتدفع الجميع إلى اشعال النار هروبا من قسوة الرياح .

وهي تمطر نادراً في فزان وبكميات قليلة ، ومنذ نوفمبر ١٧٩٨ حتى يونيه ١٧٩٩ لم يكن هناك عاصفة واحدة مرعدة ، وفي ٣١ يناير ١٧٩٩

كان هناك بعض البرق دون رعد .

وتهب العواصف كثيراً من الشمال والجنوب ، وتثير الغبار والرمال ويتلون الجو كله بلون أصفر .

ولا يوجد نهر أو مجرى يستحق الذكر في الاقليم كله ، والتربة كلسية صخرية تغطيها طبقة سميكة من الرمال وتغطيها في بعض الأحيان طبقة من الطين أو الصلصال .

ويشكل البلح الانتاج الطبيعي والثابت لفزان ، وينمو في المناطق القريبة بعض نباتات السنامكي (Senna) بكميات كبيرة أكثر مما يستورد من بلاد التيبو . وتكثر زراعة الخضروات التي يضيفها السكان إلى طعامهم كالبقدونس والسبانخ .

وتربة فزان مناسبة لزراعة الذرة والشعير ولكن نظراً لعدم توافر الخبرات المطلوبة أو صعوبة فلاحة الأرض ذاتها أو لكسل الأهالي أو لجو الاضطهاد الذي يعيشون فيه فان ما يزرع من المحاصيل لا يكفي سكان المنطقة ويعتمدون على جيرانهم عرب الشمال للحصول على ما يحتاجونه .

ولا يعطي السكان اهتماماً كبيراً لتربية الماشية ، ونجدها بقلة في المناطق الخصبة فقط ، ويستخدمها السكان لاستخراج المياه من الآبار ، ولا تذبح الا في حالات الضرورة .

والماعز هو الحيوان المنتشر في هذه المنطقة وتكثر الأغنام في المناطق الجنوبية للمملكة ولكن أغلبها يجلب من البلدان المجاورة .

ويصنع السكان العباءات والأقمشة من الصوف ، والأقمشة الصوفية السميكة هي اللباس المعتاد لأهل المنطقة ويأكلون لحم الخراف بعد تجفيفه .

ويندر وجود الخيول ، بينما يكثر استخدام الحمير لتحملها والجمال هنا غالية جداً ولا يملكها سوى الأغنياء وكبار التجار وتتغذى هذه الحيوانات على البلح ومخلفاته .

والتجارة في فزان مزدهرة إلى حد بعيد ولكنها تعتمد على ما يصنع خارجها ، وفي الفترة ما بين أكتوبر وفبراير تصبح مرزق سوقاً كبيراً ، وقبلة للقوافل من القاهرة وبنغازي وطرابلس وغدامس وتواته والسودان ، والقوافل الصغيرة من « تيبو رشاد » والطوارق .

ويقوم تجار أوجله بنقل بضائع القاهرة ، أما منتجات طرابلس فينقلها تجار سوكنا وقليل من سكان طرابلس أو فزان .

ويشتغل الطوارق بالتجارة مع السودان ، أما قبائل التيبو فتعمل بالتجارة مع أقليم بورنو .

وتحمل القوافل الآتية من الجنوب أو الغرب إلى جانب البضائع ، العبيد من الجنسين وريش النعام وجلد النمور وتراب الذهب الذي يصنع منه الأقراط وحلي النساء المختلفة .

ويستورد النحاس من بورنو بكميات كبيرة وتصدر القاهرة الحرير و « الملايا » ذات الخطوط الزرقاء والبيضاء والمنسوجات الصوفية والخرز الذي يصنع منه الأساور وكذلك بعضاً من المنتجات الهندية .

ويحمل تجار بنغازي الطباق (للمضغ) والمصنوعات التركية . وينضم تجار بنغازي إلى القوافل الآتية من القاهرة عند أوجله .

أما القوافل الآتية من طرابلس فتشتغل في الورق والمرجان المقلد والبنادق والسيوف والقماش المسمى « عباءة » وغطاء الرأس المصنوع من الصوف الأحمر . وتحمل قوافل غدامس نفس الأصناف السابقة ، أما قوافل الطوارق فهي تشتغل في الزبد والشحم والقمح ، والتجار الذين

يأتون من أقصى الجنوب يحملون « السنامكي » (Senna) وريش النعام والجمال التي تجلب للذبح .

ويحكم فزان « السلطان » وهو ينحدر من عائلة الشريف ، ويقال ان اسلاف الأمير أتوا من أفريقيا الغربية وغزوا فزان وهزموها من حوالى خمسمائة سنة . وسلطة « السلطان » لا حدود لها ويقوم بجمع الخراج « لباشا » طرابلس ويبلغ ستة الآف « دولار » ولكنها خفضت إلى أربعة آلاف . ويحضر رسول من عند الباشا كل سنة إلى مرزق لاستلام المبلغ ذهباً أو عبيدا ويسمى هذا الرسول « بك النوب » (Beyel - Nobe) ولدى رحيله من طرابلس والذي يكون عادة في نوفمبر يقوم بحماية القوافل المسافرة ، وأرجو عند سفري من مرزق إلى طرابلس أن تتاح لي فرصة مصاحبته .

ويحمل السلطان الحالي اسم « السلطان محمد بن السلطان منصور » وهناك خاتم يحمل هذا الاسم يستخدمه السلطان في مكاتباته العادية أما في كتاباته إلى الباشا فهو يستخدم خاتما أصغر حجماً كتب عليه « الشيخ » فقط .

والسلطة في فزان وراثية ، ولا ينتقل الحكم مباشرة من الأب إلى الأبن في كل الأحوال ، بل يعطى لأكبر أمير في العائلة ، وربما يختار بدلا من الأبن المباشر « الصغير » .

وغالباً ما تؤدي هذه العادة الى إراقة الدماء فان الأبن الصغير للسلطان المتوفى قد يرى في نفسه الكفاءة للحكم وعليه فانه ينازع خصمه وتكون هنا الكلمة الأخيرة للسيف .

ويعيش السلطان في قصره ، ويقع في قلعة مرزق ويعيش معه بعض الخصيان الذين يقومون على خدمته ويعيش « حريم السلطان » على مقربة

منه وهو لا يدخل « الحريم » مطلقاً وانما تدعى إليه السيدة التي يرغب في رؤيتها .

ويتكون حريم السلطان من « السلطانة » وهي طبقاً لتقاليد العائلةالمالكة لا بد وأن تكون من نسل شريف ودان أو زويله .

وإلى جانب السلطانة هناك أربعون أمة اخرى ، وكل واحدة منهن معرضة للبيع والاستبدال إذا لم تنجب ذكوراً للسلطان ، أو إذا لم تكن قريبة إلى قلبه .

وهناك مبنى مخصص للاجتماعات العامة داخل القلعة ، يربطه بجناح السلطان ممر ضيق طويل وتعلن الطبول موعد الاجتماعات وتفتح قاعة الاجتماعات ثلاث مرات كل يوم ، وحين يدعى أحدهم للحضور يمر في الممر الطويل يحوطه العبيد يرددون « أطال الله في عمر السلطان » أطال الله في عمر السلطان .

ويجلس السلطان في صدر البهو على كرسي العرش وحين يتقدم اليه أحدهم يقبل يد السلطان ويقربها من جبهته ويركع أمامه ويردد بعض المقاطع المعتادة مثل « حفظ الله حياتكم ، حفظ الله بلدكم » .

وفي أيام الجمع والأعياد يخرج السلطان إلى الوادي حيث يجد رجال القصر يرقصون بخيولهم ويستعرضون أمامه مهاراتهم في فنون الحرب والرماية .

ويتكون بلاط السلطان من « الكاليدياما » (Kaledyama) وهو الرجل الأول في بلاط السلطان يليه « الكيجيوما » (Keigumma) وهو الرجل الثاني ، وأفراد جيشه ويتكونون من عدد من العبيد السود وآخر من العبيد البيض ويسمون بلغة البلاد « المماليك » .

والكاليدياما والكيجيوما لا بد أن يكونا من غير العبيد وهم في هذه

الآونة لا يملكون سلطة كبيرة بينما تتركز في يـــد المماليك الأوربيين واليونانيين وأبنائهم .

ويجلب العبيد السود في سن مبكرة ، ويتعلمون طبقاً لاستعداداتهم وقدراتهم . وبعض هؤلاء العبيد له مكانة كبيرة عند السلطان .

ويرتدي السلطان في الحفلات الرسمية رداء كبيراً أبيض من الحرير المطرز بالذهب والفضة صنع على الطريقــة السودانية ويلبس تحته الزي الطرابلسي ، وتلف رأسه عمامة كبيرة يبلغ محيطها ياردة كاملة وعرضها ثلثي ياردة .

ويقوم دخل السلطان على الضرائب التي تفرض على الحدائق والأراضي المزروعة ، إلى جانب الغرامات التي يفرضها العبيد .

ويغالي هؤلاء العبيد في تقديراتهم ما لم يحصلوا على رشوة . ويحصل السلطان على دخول أخرى من الضرائب التي تفرض على التجارة الخارجية وتجبى من القوافل .

والقوافل التي تأتي من مصر تدفع من ستة إلى ثمانية دولارات عن كل حمولة جمل ، وقوافل بورنو والسودان تدفع « مثقالين » على كل عبد . وبالإضافة إلى ما سبق يتقاضى السلطان ضرائب على الملاحات وبحيرات النطرون ومن الحدائق الملكية والغابات .

واستطاع السلطان أن يملأ خزائنه عن طريق الحملات التي يفاجىء بها التيبو من قبائل بورجو (Burgu) .

أمـــا أوجه الانفاق العامة فتتكون من نفقات السلطان ونفقات حاشيته وقصره .

ويتقاضى القاضي وجهاز القضاء ورجال الدين وكبار الضباط عائداً من ناتج البلح والحدائق من مالكيها ، مقابل حق الانتفاع .

ولأمراء العائلة المالكة عائد من الأراضي المخصصة لهم بالإضافة إلى نسبة معينة من القمح الذي يصرف أسبوعياً من مخازن السلطان . ويمارس السلطان ورجاله أسلوب الضغط والقسر لجمع الضرائب .

ويمارس سلطة القضاء أحد الضباط ويسمى « القاضي » وتبنى أحكامه بناء على التعاليم الاسلامية والعرف . وفيما عدا الجرائم يكون الحكم فيها اعتباطاً ويترك للسلطان البت فيها . وفي غياب القاضي يقوم نائبه بممارسة سلطاته .

ووظيفة القاضي وكبير القضاء وظيفة وراثية منذ أن اعتلت أسرة السلطان الحكم . ويقوم السلطان باختيار أحد أفراد عائلته ممن يجيدون القراءة والكتابة لشغل هذه الوظيفة .

ويمارس أمراء عائلة السلطان سلطة القضاء أيضاً ولهم الحق في توقيع العقوبات والقاضي هو رجل الدين الأول . وله تأثير كبير عند الأفراد ويليه في المرتبة « أمان كبير » (Iman Kbir) .

وليس من السهل احصاء سكان فزان ، ويمكن تقديرهم بسبعين أو بخمسة وسبعين ألف ، وكلهم دون استثناء مسلمون ، ويختلف السكان في لون بشرتهم فنجد أن من يسكنون الشمال يشبهون العرب في ملامحهم ولون بشرتهم أما من يقطنون الغرب فقد امتزجوا بسكان البلاد المجاورة ويشبهون « التيبو » والطوارق .

ويمكن أن نصف أهل فزان الأصليين بأنهم قوم معتدلو القامة ، أشداء السواعـــد والأرجل ، بشرتهم بنية غامقة وشعرهم أسود وقصير ووجوههم عادية وأنوفهم أقل فلطحة من أنوف الزنوج وحركاتهم ومشيتهم تفتقر إلى الحيوية سواء في عقولهم أو أجسادهم .

وقد ساهم استبداد الحكومة بهم وفقر البلاد العام وطعامهم المكون

من البلح أو العجين والذي يضاف اليه نادراً الزيت أو الشحم دون لحم سام كل ذلك في ضعفهم وانخفاض معنويتهم وحتى بالنسبة لمن اختلطت دماؤهم بالعرب نجدهم كسالى عديمي النشاط .

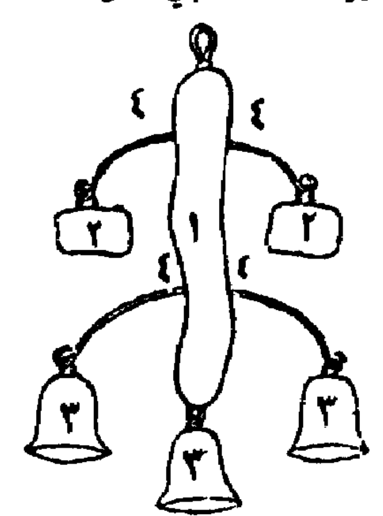
وفيما يتعلق بالفنون والصناعة فلا يوجد سوى بعض الصناعات الهزيلة والمنتجات التافهة ، وفي مرزق كلها لم أجد صانعاً ماهراً واحداً ، ولا يوجد سوى بعض صانعي الأحذية والحدادين .

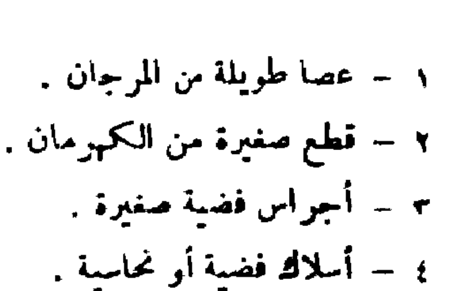
ويقوم الحداد بكل ما يتعلق بالمعادن دون تمييز ، فيقوم بصنع « حدوة الخيل » وخاتم الأميرة في الوقت ذاته .

وتصنع النساء قماشاً صوفيا سميكا يسمى « عباءة » ويمكن للقارىء أن يتصور مستوى هذه الصناعة حينما يعرف أن « المكوك » لم يكن معروفاً لديهم وكان كل العمل يتم يدوياً .

ويتكون لباس أهل فزان من قميص أو عباءة من الكتان أو القطن المستورد من القاهرة وترتدي الطبقة المتوسطة العباءة المصنوعة في السودان . أما الأغنياء والماليك فهم يرتدون الزي الطرابلسي وفوقه يرتدون قميصاً سودانيا مزركشا والأساور التي تلبس أحياناً في الأيدي والأرجل .

وتمشط زوجات الأغنياء شعورهن بطريقة غريبة فهن يقسمنه الى سبع جدائل منهن مدعمة برباط جلدي ينتهي بعقدة ، وتوثق الست جدائل الأخريات وتنتهي كل واحدة منها بحلية كما هو مبين بالرسم .





وبالاضافة إلى ما سبق فان نساء فزان يضعن أسلاكاً فضية في قمة رؤوسهن ويثبتن بها أجراساً فضية صغيرة تتدلى على جانبي الرأس . وتثقب النساء آذانهن ويعلقن قرطاً فضياً صغيراً ، وترتـــدى النساء في الأحوال العادية تسع أو عشر أساور زجاجية في أذرعهن وينزعن منها أربعاً أو خمساً في المناسبات . ويلبس بدلاً منها أساور فضية يبلغ عرض كل منها أربعة بوصات .

وتلبس النساء أساور فضية حول كاحلهن أيضاً ، وتتكون عقود الزينة التي تلبس في الرقبة من سلسلة من الفضة تتدلى منها إحدى عشرة قطعة من العقيق وتتدلى من المقدمة حلية من الفضة .

أما نساء العوام فيلبسن حلية من الخرز الزجاجي . ويقصصن شعورهن على الجباه ويدهنـّه بمعجون يصنع مـــن « اللافندر » وحبوب الكراوية والفلفل والقرنفل والبرغل وبعض الأعشاب ويضاف قليل من الزيت .

ونساء فزان مغرمات بالرقص ، ويصدم المسافر المسلم بالخلاعة والحرية التي يسمح بها في فزان .

وتدار حفلات الرقص في الأماكن العامة نهاراً وليلاً ويقف رجلان أو ثلاثة يمسكون الدفوف وتشكل النسوة دائرة ويغني الرجال لحناً ويردده النساء ويحركن سواعدهن وتتقدم فتاة تجاه ضاربي الدفوف ، وحين تقترب منهم يشتركون معها في الرقص ويتقدمون نحوها فترجع الفتاة بعض خطوات إلى الخلف وتلقي بجسدها إلى الوراء حيث تلحقها النساء قبل أن تسقط على الأرض بمسافة قصيرة ، ويدفعنهـــا لتعود واقفة ويستأنف الرجال حينئذ مكانهم في المنتصف وتتقدم فتاة أخرى تعاود الرقصة .

ويدمن رجال فزان الشرب . وشرابهم يصنع من عصير البلح الطازج

ويسمى لجبي (Lugibi) أو مشروب آخر يسمى بوظة .

وحين يجتمع الأصدقاء في المساء فان التسلية الوحيدة هي الشرب ، وفي بعض الأحيان تشترك معهم احدى المطربات وتسمى « كادنكا » (Kadnka) وهي كلمة سودانية وهي ترادف معنى « عالمة » في القاهرة .

وأغاني فزان أغان سودانية وتصنع الآلة الموسيقية المسماة بالربابة من نصف ثمرة القرع وتفرغ وتغطى بالجلد ويثبت بها يد طويلة يشد عليها طوليا خيوط من شعور الخيل وتجدل في وتر واحد ويعزف عليها بالقوس .

ولقد قدر لي أن أحضر أحدى الحفلات مع « سيدي المنتصر » أخو السلطان ، وفي منزل صغير على مقربة من القصر أمر أن تحضر واحدة من « الكادنكا » وحين حضرت انفرد بها وعندما عادت الى الجماعة سألوها بابتسامة ذات مغزى اين كانت ؟ فالتقطت الربابة على الفور وأنشدت تقول بلغة عربية « ما ألذ سيدي المنتصر انه كماء النيل ، وقبلاته أشهى من ماء النيل فكيف لي أن أقاوم » .

وكنتيجة طبيعية للحرية التي يمارسها بها الجنس في مرزق ، يمكنك أن تجد نسوة كثيرات من نفس الطراز يملأن العاصمة ولا يتوفرن في بلد آخر بنفس العدد ، وتسبب الدعارة المحن والفقر الذي يعيشه أهل فزان .

وتنتشر في فزان أمراض تناسلية عدة ، نقلت اليها من السودان ، ويسمى الزهري الذي انتقل من طرابلس والقاهرة « فرانزي » أو « الشر المستطير » ، ويستعملون الملح أو فاكهة « الهاندال » (Handal) لعلاج هذه الأمراض وتغسل الأماكن المتقيحة ، ان وجدت ، بماء النترون أو الصودا المذابة في الماء . وغالباً ما تفشل هذه العقاقير إذا كان المرض قد استفحل .

وينتشر داء « البواسير » بسبب الإسراف في استعمال الفلفل الأحمر . وتنتشر الحمى والطاعون وهما يشكلان خطورة كبيرة على الأجانب .

ولا يوجد علاج لهذه الأمراض سوى التماويذ وهي عبارة عن بعض آيات من القرآن المكتوبة على ورق .. تلبس هذه الورقة حول الرقبة ، أما في الأحوال الخطيرة فانها تبلع .

و « الفصاد » غير معروف ويسحب الدم عادة بواسطة الكؤوس . وبالنسبة للجراحة فقــد سمعت أن في مرزق من يستطيع أن يعالج الكسور البسيطة .

ومنازل فزان صغيرة ، مبنية من قطع الحجارة أو الطوب المصنوع من تراب الكلس أو الصلصال ، ويجفف في الشمس . ولا توجد أدوات تستخدم في البناء سوى الأيدي ، وحين يرتفع البناء يتقدم أصدقاء صاحب البيت لمساعدته لوضع السقف وهو عجينة من الحجر الجيري وتتم هذه الخطوة بطريقة يدوية أيضاً .

أما فيما يتعلق بالمأكل فلم أجد أناسا أكثر اعتدالا من أهل فزان ، واللحم في الواقع هو الطبق الذي لا يستطيعون مقاومته ان وضع أمامهم ، اذ أن اللحم ليس غذاء معتادا بالنسبة لعامة السكان ، ويقول المثل يصف الرجل الغني « بأنه من يأكل الخبز واللحم كل يوم » .

ملاحظة :

ربمــا استطعت في عرضي للمعلومات السابقة أن أعطي فكرة عامة عن مرزق وعن سكان مملكة فزان . وأرجو أن تتاح لي في القريب فرصة

العودة إلى هذا البلد لأقدم معلومات أكثر وأتمكن من توضيح بعض النقاط وتصحيح بعض الأخطاء . كما أرجو أن أتمكن من ارسال معلومات منقحة وواضحة إلى الجمعيـة عن طريق أحد الأصدقاء الذي وصل إلى مرزق ويعتزم العودة إلى طرابلس في مايو أو يونيه عام ١٨٠٠ والذي أرجو أن يسلم مذكراتي هذه إلى القنصلية الانجليزية .

توقيع

فريدريك هورنمان

ملحق

ملحق ١

« ملاحظات حول وصف هورنمـــان لسيوه وآثارها مع الاشارة إلى ما كتبه قديماً عن الواحات ومعبد آمون »

بقلم : سير ويليام يانج سكرتير الجمعية

لم تصل المذكرات التي أشار اليها هورنمان إلى الجمعية ، وقد انتظرنا زهاء عامين بعد الموعد الذي كان يجب أن تصلنا فيه والآن وبعد هذه الفترة تعرض مذكرات الرحالة هورنمان على القارىء للدراسة .

ان ظروف المراسلة من داخل افريقيا لم تكن متاحة الا عن طريق القوافل التي تسير في مواعيد منتظمة متباعدة . وقـد كان الأمر بحاجة إلى حذر شديد فيما يتعلق بالرحالة هورنمان – المسيحي – حتى لا يوقظ غضب الوطنيين، ولهذا فإن رسائل هورنمان لم تتأخر ولكنها عطلت وعرقلت.

ولقد كانت ضرورة تمسكه بشخصية – المسلم – لها أهميتها كما أوضح لنا في خطابه الذي كتبه في القـاهرة بتاريخ ٣١ أغسطس ١٧١٨ وكما قرأنا فانه طلب من الجمعية ألا تتصل به حتى لا تثير حقد المسلمين.

وفي هذه الظروف يبدو جلياً أنه من واجب القراء علينا ألا نحجب مذكرات هورنمان عنهم .

ولعل القارىء يكتشف أن مذكرات هورنمان لم تقدم اجابات لكل

الأسئلة التي يتوقعها ولهذا فإنا نجد أن بعض الاضافات والتعليقات ربما تعطي صورة أوضح لمن يقرأ المذكرات .

ويود محرر هذا المقال أن يقـــدم تعليقاً لموضوعين عالجها هورنمان بطريقة خاطئة وتختلف عما ذكره الرحالة الآخرون .

ص ٢٢ ساحة واحة سيوه – كما قدرها هورنمان – تختلف اختلافاً كبيراً عما ورد في كتابات الرحالة الآخرين .

ص ٢٨ مقاييس المعبد المصري تختلف من كل ناحية عن المعلومات التي ذكرها « براون » .

ويعنى هذا المقال بالتأكد من وجود الخطأ في تقديرات هورنمان وأن يبرر سبب وقوعه فيه .

وبالنسبة لقضية المعبد المصري فان المعلق لن يكتفي بتبيان الاختلاف ما بين تقريري « براون » و « هورنمان » وإنما سيضيف اليها بعض النقاط الجديدة التي تعنى بالبناء والغرض منه بناء على المعلومات التاريخية السابقة التي يفترض صحتها .

ص ٢٢ ذكر هورنمان أن « محيط المنطقة الخصبة لسيوه تبلغ خمسين ميلا » ويختلف هورنمان في تقديره هذا عن كل ما كتبه رانيل (Rennell) وبراون الذي تتفق تقديراته مع آراء الآخرين ، فقد حدد مساحة سيوه بستة أميال طولا وأربعة ونصف عرضاً أي أن محيطها لا يتعدى ثمانية عشر ميلاً . لعلنا نجد أن هورنمان لم يختلف مع الآخرين فقط بل أنـه اختلف مع نفسه أيضاً ، إذ أننا نجـــد في كتاباته ما يدحض بعض التقديرات التي ذهب إليها .

فقد ذكر هورنمان أن « شرقي » (Scharkie) و« مسيلم »(Msallem) و « مونشي » (Menschie) و « سيبوكا » (Sbocka) و « باريشا »

(Barischa) هي كل البلاد التي تقع في دائرة سيوه - ذكر أنها تبعد ميلا أو اثنين من سيوه - ولعل القارىء يتفق معي في أنه من غير المعقول أن توجد تلك البلاد المتقاربة إلى هذا الحد في وادي فسيح يبلغ محيطه خمسين ميلا ، ففي منطقة خصبة تحيطها الرمال والصحراء من كل ناحية نجد أن السكان لا بد وأن ينتشروا ويتكاثروا ليغطوا المنطقة كلها. ولقد أخبرنا ديودورس[1] (Diodorus) أن سكان سيوه القدماء كانوا يعيشون في جماعات ويبدو أيضاً أن سكان سيوه الحاليين يعيشون في مدن - رغبة في التجمع والحماية من هجمات عرب الصحراء - وعلى هذا فإن مدنهم أو قراهم لا بد وأن تكون أكثر تباعداً عما ذكره لنا هورنمان ، وبصفة عامة فانا نجد أن المجتمعات البشرية تتجمع وتتزايد حتى تغطي الاقليم كله خصوصاً إذا كان يتميز بخصوبته وتوفر مقومات المعيشة به .

ولقد وصف هورنمان اقليم سيوه بأنه يضم عديداً من الحدائق « المسورة » وتلقى عناية من أصحابها ، وقد شقت القنوات والمجاري لري هذه الحدائق . وقد شبه هورنمان أهل سيوه بأنهم يبدون كالنحل ويشبهون خلية النحل لكثرتهم .

ولننتقل الآن إلى حديث هورنمان عن أهل سيوه ولنحاول أن نقارن عددهم بمساحتها التي قدر هورنمان محيطها بخمسين ميلا . ولقد ذكر لنا الرحالة بأن عدد الرجال القادرين على حمل السلاح لا يزيدون عن ١٥٠٠ محارب . كمعلومات يصل منها إلى تقدير عدد السكان الكلي - ولكنه لم يذكر لنا شيئاً من هذا القبيل .

وإذا استطعنا أن نقدر عدد المزارعين لمنطقة تبلغ مساحتها ١٢٧٫٣٦٠

---

(١) Ed. Wesseling, Tom. II. P. 198.

أكر[1] من الارض الخصبة فربما وجدنا أن هناك مزارعاً واحـداً لكل خمسين أكر مربع حيث أن النساء - كما ذكر لنـا هورنمان يعملن في أنشطة أخرى فهن يعملن في صناعة السلال .

ويحمل التقدير السابق أدلة هدمه فلا بد أن تكون مساحة هذه المنطقة أقل مما ذكر لنا هورنمان حتى يمكن أن تزرع بالأسلوب الذي وصفه لنا .

وإذا رجعنا إلى المذكرات فربما وجدنا سبب الخطأ الذي وقع فيـه هورنمان فقد قال « ان رقعة سيوه تمتد لمساحة معقولة ، والمنطقة الرئيسية فيها عبارة عن وادي خصيب يبلغ محيطه خمسين ميلاً تحيطه به الصحراء والصخور العالية العارية . واذا رجعنا - بدورنا - الى مـاكتب عن سيوه فلن نجد ما يدل على أن سيوه محاطة مباشرة بالصخور العالية والجبال فقد قال ديودورس عن سيوه « انها محاطة من كل ناحية بالرمال » ، وذكر لنا براون أيضاً ان عرضها أربعة أميال ونصف وطولهـا ستة وتحيطها منطقة صحراوية وتحيط بهذه المنطقة الصحراوية جبال عالية .

ويبدو أن هورنمان لم يقم بأي زيارة فيما عدا زيارته للاثار وهي تبعد ميلاً ونصف ميل عن سيوه وزيارة أخرى المقابر على بعد ميل من المدينة وربما خمّن رحالتنا أن مساحة سيوه تنتهي عند تلك الجبال والهضاب ولم يستوضح ان كان الوادي يشمل كل هذه المساحة أو أن مساحته أقل من ذلك بكثير .

وربمـا كان سبب المغالطة التي وقع فيها هورنمان أنه قـام ببعض الاستفسارات حول مساحة سيوه وتصور أهلها أنه من الأفضل أن يبالغوا في أرقامهم وربما حالت لهجتهم دون أن يفهم هورنمان حقيقة ما يقصدونه تماماً .

(١) مقياس للمساحة يساوي ٤٨٤٠ ياردة مربعة أي حوالى ٤٠٠٠ متر مربع (المعرب).

ص (٢٨) وقد سرد علينا هورنمان وصفا للبناء الذي وجده بالقرب من سيوة وتختلف تقديراته لهذا البناء عما كتبه براون .

	الطول بالقدم	العرض	الارتفاع
براون	٣٢	١٥	١٨
هورنمان	٣٠ — ٣٦	٢٤	٢٧

ولعلنا نذكر أن هورنمان قد منع من دخول البناء وعليه فإن الارقام التي أوردها لنا مبنية على الملاحظة فقط بينما فهمنا من براون أنه سجل مقاييسه من داخل البناء نفسه . وفي هذه الحالة يجب أن تنقص تقديرات هورنمان لطول وعرض البناء بما يساوي سمك الجدران .

ويمكن لنا أن نفترض أن سمك الحوائط الخارجية أقل من سمك الحوائط الداخلية حيث ان الأخيرة بنيت قوية لتحتمل ثقل الألواح الصخرية التي بني بها السقف ، ويبدو أن هورنمان حينما قدر سمك الجدران بستة أقدام لم يميز بين الجدران الخارجية والداخلية .

وذكر لنا هورنمان أيضاً أن الجزء الشمالي من البناء مبني على صخرة كلسية ترتفع – عن المستوى العام – حوالى ثمانية أقدام يحيطها سياج من كل ناحية ، وذكر لنا أيضاً أن هناك صخرتين كبيرتين سقطتا من الجزء الجنوبي للبناء على الأرض قريباً من قاعدة البناء وهو بهذا يقودنا إلى افتراض أن مستوى الجزء الجنوبي منخفض عن الجزء الشمالي .

وقد اتفق كل من هورنمان وبراون على الناحية المعمارية والفنية للبناء واتفقا سويا على أنه مصري الأصل .

غير أنه يمكن لنا ان نستخلص بعض الحقائق من خلال وصف هورنمان حول الغرض من بنائه وربما يدعم ما ذكره هورنمان عنه – الفكرة

القائلة بأن هـــذا المعبد هو الذي شيده دناؤس (Danaus) المصري للآله آمون .

ان الوصف العام للناحية المعمارية والفنية للبناء يدفعنا إلى التساؤل عن من بناه ومتى بني ؟ ولأي غرض ؟ واقترح أن يرجع من يشكون في أن هذا البناء ذو أصل مصري إلى ما كتبه « نوردون » (Nordon) و « بوكوك » (Pocock) و « لوكاس » (Lucas) بالإضافة إلى مقالات « ميجور رينل » (Major Rennell) وربما يطيب لي أن أشير هنا إلى ما قاله « ديوروس »[1] (Didd. Sic.) من أن البناء بناه دناؤس المصري.

وكما سلمنا جدلاً فيما قيل عن البناء فسنعرض هنا أيضاً بعض الحقائق التي ذكرها هورنمان لعلها تقودنا إلى استنتاجات حول تصميمه والغرض من بنائه .

أولاً – ينبغي أن نقوم بدراسته للتأكد من أن بقايا البناء المشار اليه هي بعض آثار بناء مقدس (محراب)[2] (Adytum) بالفعل ، وربما يفيدنا ما ذكره هورنمان حين قال : « المستويات المختلف للبناء القديم بسيوه »

وعرف (Hen. Steeph) (المحراب) (Adytum) بقوله : « أنه مكان خاص لا يسمح بالدخول فيـــه إلا للكهنة للتكهن ومعرفة الطالع »[3] .

ثانياً – علق هورنمان على أسلوب البناء البدائي بقوله « انه لم يكتشف في أي مكان من البناء أنه كان مغطى بالرخام أو أنه كان منقوشاً أو مزيناً » وفي الحقيقة أن البناء لم يكن كبيراً . ولم يكن هناك « محراب » أو

---

(١) الفقرة مترجمة عن اليونانية القديمة (المعرب).

(٢) وهي كلمة لاتينية تعني بالانجليزية (Shrine) وبالعربية محراب (المعرب) .

(٣) مترجمة عن اللاتينية (المعرب) .

قواعد تماثيل لأن المعابد المصرية القديمة لم يكن بها تماثيل وقال « لوشيان » (Lucian) بأنه « كانت هناك في تلك المنطقة كثير من المعابدالمصرية » [1]

ولقد وصف (سترابو) [2] المعبد الوحيد المزخرف في هليوبولس [3] بقوله ان الزخرفة كانت حفراً بدائياً بالأسلوب التوسكاني [4] وهي تشبه الزخرفة التي شاهدها هورنمان على حوائط معبد سيوه ، ويقول (سترابو) ان الحوائط مزخرفة بطريقة جميلة ومحـــلاة بصور دينية تشبه الرسوم الموجودة بتيرانا (سيسليا) وكذلك الرسوم اليونانية القديمة [5] .

وتدعم وجود تلك الرسوم والنقوش على حوائط بناء سيوه فكرة أنه كان معبداً دينياً لآمون .

ثالثاً – قرر هورنمان أنه كان يحيط بالمبنى وملحقاته وعلى بعد قليل حائط كبير قوي . وحتى لا نطيل حديث هورنمان في سرد لا داعي منه ، ربما يبدو كافياً أن نشير إلى « دليل الرحالة » الذي كتبه (بوسانياس)[6] (Pausanias) إذ كان يندر أن يوجد معبد دون ملحقات ودون حائط يلتف حوله . ويبدو أن هذه الحوائط كانت تبنى لتحدد الأماكن المقدسة ولحماية كنوزها أيضاً .

فقد كانت تماثيل المعبد من الذهب والعاج ، وكانت الهدايا والنذور التي

---

(١) مترجمة عن اليونانية القديمة (المعرب) .

(٢) سترابو (Strabo) مؤرخ وجغرافي يوناني ولد عام ٦٣ قبل الميلاد وتوفي عام ٢١ بعد الميلاد (المعرب) .

(٣) احدى ضواحي القاهرة (مدينة الشمس) (المعرب).

(٤) توسكانيا – أواسط ايطاليا (المعرب) .

(٥) مترجمة عن اللغة اليونانية القديمة (المعرب) .

(٦) رحالة وجغرافي يوناني وكتاباته عن اليونان ذات أهمية تاريخية كبيرة ترجمت الى الانجليزية في عام ١٨٩٨ (المعرب) .

تقدم إلى الكهنة دروعاً وكؤوساً من الذهب . ولو رجعنا إلى اتهامات « شيشرون »[1] ل (فيرس)[2] (Verres) . لعرفنا أن الكنوز كانت تحفظ غالباً في الاماكن المقدسة رغبة في توفير الحماية لها . ولقد كانت الأموال التي يجمعها (الاثينيون) تودع في (البارثينون)[3] وذلك في نهاية الحروب الفارسية ، واودعت الكنوز التي نهبها (فيللوميلس) (Philomelus) في معبد (فوسيز)[4] (Phocis) ولقد كان ذلك سبباً في اندلاع الحروب المقدسة .

ويتبين لنا من خلال السرد السابق ان الأماكن المقدسة كانت تحاط دائماً بمتاريس ، وعلى سبيل المثال فقد بني معبد (منيرفا) (Minerva) في ارتجيا[6] وبني (البارثينون الأثيني) في (الاكروبول)[1] (Acropolis) وشيد معبد جيوبتر الروماني في (الكابيتول) (Capitol) وقد

---

(١) ماركوس توليوس سيزورو Marcus Tellius Cicero ١٠٦ ق.م. خطيب روماني عظيم ، اشتهر ايضاً كسياسي وفيلسوف (المعرب) .

(٢) فيروس جايوس Verres Gaius ١٢٠ ق.م. ٤٣ ق.م. قائد روماني تقلد عدة مناصب قبل ان يتولى حكم سيسليا وحيث احتدمت الخلافات بين القادة الرومان ، قدم جايوس الى المحاكمة ورفع سيزورو لواء الاتهام ضده ولكنه استطاع ان يفر الى ماسليا او ماسليا - كما تعرف الان - (المعرب) .

(٣) بارثينون Parthenon ويعني باليونانية « مكان العذراء » وهو معبد مقدس للالهة اثينا بني في عام ٤٤٧ ق.م. (المعرب) .

(٤) فوسيز phocis ولاية قديمة في اواسط اليونان (المعرب) .

(٥) منيرفا Minerva إلهة الحكمة عند اليونان (المعرب) .

(٦) جزيرة صغيرة بنيت عليها سيراكوز القديمة (المعرب) .

(٧) اكروبوليس ومعناها باليونانية الجزءالعالي من المدينة وهي هنا بمعنى قلعة اثينا (المعرب) .

لاحظ الكاتب حينما كان في سيسليه أن معبد (سيلنيوتا) (Ŝelinunté)
كان محاطاً بالمتاريس .

ويمكن القول بأن وجود الحوائط حول (مبنى سيوه) ربما يدعم الفكرة القائلة بأنه كان معبداً ذات يوم .

رابعاً – شاهد هورنمان – على بعد نصف ميل من آثار سيوه – بئراً للماء العذب تحيط به أشجار النخيل ووصف الموقع كله بأنه رومانتيكي وشاعري .

والجدير بالذكر أن وصف هورنمان يبدو مطابقاً لما قـــاله الكتاب الأوائل عن « نافورة الشمس » ويلاحظ أن المسافة التي حددها هورنمان تبدو مطابقة لما ذكره ديودورس [1] فقد قال « وهناك بالقرب من المعبد يوجد معبد اخر لزيوس امون Zeus Ammon يظلله النخيل ، ويوجد على مقربة منه نبع ماء عذب اسمه عـــين الشمس » . وذكر كورتيس Curtiuo ايضاً « ان هناك معبدا مقدساً اخر تتوسطه عين ماء تسمى عين الشمس » [2] . وهكذا يمكن ان تخلص الى ان المكان الذي زاره رحالتنا « هورنمان » هو نفس المكان بالقرب من عين الشمس .

ولقد كانت ميــاه العين يختلف سخونة وبرودة حسب ساعات النهار « فعند الفجر كانت مياهها ساخنة ، وعندما يتقدم النهار تنخفض حرارة المياه وفي منتصف النهار تماماً تكون المياه ابرد ما تكون ، وبحلول المساء ترتفع المياه تدريجياً وتبدأ الحرارة في الانخفاض مع عودة الفجر وهكذا » [3]

---

(١) مترجم عن نص لاتيني (المعرب) ارجع الى Diod. Sic. Tom. II p. 199 ·

(٢) مترجم عن نص لاتيني (المعرب) ارجع الى Lib . Iv . Cap · 7 .

(٣) مترجم عن نص لاتيني (المعرب) ارجع الى Diod . Sic . Tom . It edit .

ويبدو أن السيد هورنمان لم يقم بأي استفسار حول هذا الموضوع الشائق ولكنه أخبرنا انه سأل عما اذا كان هناك عين مياه حلوة بالقرب من المنطقة ، ودله أهل المكان الى النبع الذي اشار اليه في مذكراتــه وهو بدون شك أقرب العيون لدى تلك المنطقة ، ولعلها هي التي اشار اليها السيد براون حين قال (ص ٢٤ مجلد مذكراته) « انها عين تنبع بالقرب من الاثار ويصفها الاهالي بان ماءها يختلف برودة ودفئا حسب ساعات النهار » « ويبدو ان السيد براون لم يدر بخلده أن واحة سيوه هي نفسها واحة آمون » .

ولعل تغير درجة حرارة المياه « الدوري » من البرودة الى الدفء ومن الدفء الى البرودة مرة أخرى ، الى جانب موقعها النسبي والقريب من الاثار ومطابقتها لما قيل عن « عين الشمس » لعل كل ذلك يدعم الافتراض القائل بانها بقايا معبد آمون .

(خامساً) ذكر هورنمان ان مواد البناء التي بني بها المعبد كانت من الحجر الكلسي الذي يحتوي على كائنات متحجرة ، وان مثل هـــذه الكائنات المتحجرة يمكن ان توجد في المناطق المجاورة وكذلك اخبرنــا « سترابو » Strabo في كتابة ص ٤٩ ان القواقــع والحفريات تتبثر في واحة « آمون » وذكر ايضا في ص ٥٠ ان الكائنات البحرية المتحجرة موجودة بكثرة في معبد آمون – وهو يفترض ان البحر كان يغطي هذه المنطقة ذات يوم .

وقد عرضنا المعلومات السابقة كأدلة نسوقها لندعم الإفتراض القائل « ان الآثار التي شاهدها هورنمان بالقرب من سيوه ربما كانت بالفعــل بقايا معبد الاله آمون » .

ويود كاتب المقال ان ينقل للقارىء ترجـة لبعض المقتطفات من الـ

« فرساليا » [1] Pharsalia لمـــا لها من أهمية بالغة للقضية موضع المناقشة الى جانب انها قد هدمت خرافة النبؤات وتركتها حطاماً كالبناء نفسه .

ويقول لوكان Lucan ان كاتو Cato اقترب من هيكل الاله جيوبتر بليبيا وكان لابيناس Labienus قد طلب منه ان يسأل الوحي عن مصير قيصر ومصير روما وما معنى الفضيلة والحياة .. الخ الخ

تحدث كاتو إلى لابيناس من قلبه
والقلب محراب الحقيقة
تحدث بقوة كما لم يتحدث الوحي من قبل
وتنهد كاتو قائلاً :
ماذا تريدني أن أقول ؟
هل سنفقد حريتنا ؟
وهل أموت قبل أن أصبح عبداً ؟
وهل أسأل عن معنى الحياة ..
وهل أسأل عن معنى الفضيلة
وأنت تعرف يا لابيناس
ان الحياة عمرها الأيام والسنين
وهل أسأل الوحي ؟

---

(١) وهي ملحمة يونانية كتبها لوكان Lucan لمؤرخ الحرب الأهلية .
(The Columbia Encyclopodia) Second edit 1950 .
(المعرب) .

هل يستطيع الشيطان أن يجعل الخير شراً
وهل يساعد الحظ الأقوياء
هل أسأل الوحي
إن كان كافياً أن يكون المرء طيباً
ليستحق الثناء
حينما يكون فعله طيباً
وقال كاتو :
أنا أعرف الإجابة لهذه الاسئلة
وآمون لا يستطيع أن يخبرني
نحن جميعاً نعتمد على الإله
ان الايمان في القلوب
دون وحي أو كهنة
لا نحتاج إلى سؤال الوحي
ان الله لا يضع سره في عدد قليل من الناس
ولا يرضى ان تدفن الحقيقة في الرمال
ان أماكن الصلاة
هي الأرض والسماء وكل البقاع
وحيثما نذهب
فان الله موجود
ومن يشك في ذلك
فليسأل الوحي
لا وحي أو نبوءة
تقرر مصيري

أنا أعرف أني سأموت
وهذا يجعلني أعرف كيف أعيش
الجبان والشجاع والطيب والشرير
جميعاً يموتون
وينتهي حديث كاتو
(ويعطي ظهره للمعبد)
يملأه الإيمان والفضيلة
ومضى
وترك آمون
لأهل المكان .

ملحـــق ٢

ربما يكون مفيــداً للجمعية والجمهور أن نلقي بعض الضوء على السيد فريدريك قبل أن ننتهي من رحلاته والتي كانت الموضوع الرئيسي لهذا الكتاب .

ومن خطاب كتبه السيد فريدريك في مرزق وأرخه في ١٩ أغسطس ١٧٩٩ ، يظهر لنا أنه عندما وصل مرزق في نهاية اكتوبر ١٧٩٨ علم أن القافلة تستعد للسفر إلى السودان على ثلاث دفعات وسترحل الدفعة الأولى بعد ثلاثة أيام من وصول مرزق .

ولما كان موعد الدفعة الأخيرة يتيح له الوقت الكافي للاستعداد ، فقد اعتزم أن يصاحبها في رحلتيها إلى (أجادس) (Agades) و (كاشنا) .

ولكن معلومات وصلت اليه مؤداها أن القافلة معرضة لهجوم الطوارق وقد كانوا على حرب مع أهالي مرزق ، كما أنه لاحظ أن كل المسافرين من التجار السود والتي أظهرت معاملاته معهم أنه من غير المحتمل أن يلقى منهم تأييــداً أو مناصرة بشكل يضمن له سهولة الاتصال بسكان قلب افريقيا .

لكل هذه الأسباب رأى السيد فريدريك أن يعدل عن قراره لينتظر القافلة التالية القــادمة من بورنو حيث يستطيع أن يسافر إلى أماكن أخرى أكثر أهمية .

وبينما كان ينتظر في مرزق إذ به يقع هو وخـــادمه « فرندنبرج » فريسة للحمى ، وشفي فريدريك فيما بعد ولكن الخادم لقي حتفه .

وعندما استماد فريدريك صحته كان عليه أن ينتظر عدة أشهر إلى أن تحضر قافلة « بورنو » ، وخلال وجوده في مرزق لم يجد شيئاً يستحق الاهتمام . ولهذا فقد قرر السفر إلى طرابلس حتى يبعث للجمعية ببعض المعلومات التي جمعها .

ووصل طرابلس بعـد رحلة استغرقت شهرين ، وفي منتصف أغسطس استطاع أن ينتهي من مهمته ، وفي أول ديسمبر ٩٩ قفل عائداً إلى مرزق حيث بلغها في العشرين من يناير عام ١٨٠٠ .

وقد وصلنا خطابان من مرزق وقد أوضح هورنمان في خطابه الثاني ، أنه كان على أهبة الاستعداد للرحيل مع قافلة بورنو ، وأبدى رغبته في أن يستأنف اكتشافاته داخل افريقيا بعد أن يصل بورنو .

وفيما يلي نص الخطابين :

مرزق في ٢٠ فبراير ١٨٠٠

سيدي

غادرت طرابلس في اليوم الأول من ديسمبر ١٧٩٩ ووصلت عاصمة فزان (مرزق) في العشرين من يناير سنة ١٨٠٠ بعد رحلة بطيئة وطيبة في نفس الوقت .

لعلي أتمتع الآن بصحة جيدة .

ان الطريق إلى السودان ليس آمناً لكي أواصل رحلتي عـن طريق آجادس .

ويوجد هنا في زيارة المدينة حاكم بورنو وهو صديق لسلطان الاقليم

وقد تعرفت عليه وسأصحبه في رحلته إلى بورنو في الخامس عشر من مارس على وجه التقريب ، وخلال شهري أغسطس وسبتمبر أرجو أن أصل « كاشنا » وهي تبعد خمسة عشر يوماً من « بورنو » .

مع عظيم احترامي المطيع

فريدريك هورنمان

وفيما يلي نص الخطاب الثاني :

مرزق في ٦ أبريل سنة ١٨٠٠

سيدي

ان القافلة في لحظاتها الاخيرة قبل رحيلها إلى بورنو ، وسألحق بها في المساء . ويراودني عظيم الأمل في نجاح رحلتي ، فأنا في صحة جيدة وقد اعتدت على الطقس ، وتربطني صداقة برفاق الطريق ، وأتحدث اللغة العربية وبعضاً من لغة بورنو ، ولدي السلاح والشجاعة ، وتحت رعاية حاكم بورنو وحاكم مرزق .

وقد غادرت القافلة السودانية مرزق منذ شهر مضى وقد أحسنت صنعاً حينما لم انضم اليها ، فقد شوهدت منذ فترة من الزمن قبائل « التيبو » تجوب الصحراء تنوي الهجوم على تلك القافلة .

لعلي أول اوربي يقوم برحلة طويلة كهذه ولهذا سأحاول ألا تكون اكتشافاتي عفو الصدفة ، ولن أمكث في بلد أكثر مما يجب ، وعليه فلن أقضي في بورنو أكثر من شهر سبتمبر حيث استأنف الرحلة إلى « كاشنا » مع القافلة التي تسافر عادة في مثل هذا التاريخ من بورنو إلى السودان .

لا استطيع ان اقطع برأي عما سأفعله بعد مغادرتي « للسودان » أو

« كاشنا » ولكن يمكنكم أن تعتمدوا على حسن تصرفي وتقديري وأرجو ان اقدم للجمعية اقصى ما يمكن أن أقدمه .

أود أن تعتبروا خطابي هذا آخر خطاب حتى نهاية العام وربما يكون الأخير حتى أصل الى اي ميناء على الساحل الأفريقي .

كتبت اليكم في الرابع والعشرين من مارس الماضي خطاباً مطولا من طرابلس ، ولا أشك في أنه قد وصلكم[1] .

وبالاضافة إلى ما ذكرته لكم في خطابي السابق فيما يتعلق « بالجدري» فهم يستخدمون هنا « البصل » و « التمرهندي » لحماية عيونهم وهذا العلاج ذو فاعلية كما أخبرت .

ومن خلال الدراسة التي قمت بها على الأمراض التناسلية وكما ذكرت لكم من قبل فهم يستخدمون الملح كعلاج لهذه الأمراض ويستخدم بالطريقة التي أشرت اليها من قبل .

وعلى ضوء المعلومات التي استقيتها فإن أهل فزان لا تصيبهم الأمراض التناسلية أكثر من مرة واحدة في حياتهم .

وبالرغم من أن مرض « السفلس » واحد إلا أن هناك اختلافاً كبيراً بين طبيعة مرض « السفلس » الذي يأتي عن طريق قوافل السودان والذي يأتي عن طريق قوافل طرابلس والقاهرة . وحتى الآن لم أجد من لحقه هذان المرضان واحد تلو الآخر خلال حياته .

منذ عدة أيام تحدثت مع أحدهم ممن قابلوا السيد « براون » في « دارفور » وأمدني ببعض المعلومات عن البلاد التي زارها وأخبرني أن وسائل الاتصال بين النيجر والنيل لا شك فيها ولكنها قبل المواسم المطرة تكون نادرة حيث يجف النيجر فترة الجفاف .

---

(١) – لم يصل هذا الخطاب للجمعية .

والجدير بالذكر أن عادة القاء فتاة في النهر لوحظ أنهـــا تمارس في « النيجر » منذ زمن غير بعيد تماماً كما كان سائداً في مصر القديمة .

وعلمت أن طرق المواصلات بـين السودان والساحل الافريقي لا بد أن تكون فيما بين « نيفا » (Nyffè) وجربا (Jerba) والمسافة بينهما قدر المسافة بين فزان والسودان اثنتي عشرة مرة .

اني اذ أضع نفسي تحت تصرف الجمعيـــة أؤكد لكم عظيم تقديري واحترامي » .

المطيع

فريدريك هورنمان

ولقد استطاع فريدريك قبل رحيله من بورنو أن يصادق عدداً كبيراً من الحجاج والتجار من أقاليم مختلفة في افريقيا ، وقـد ساعده هؤلاء جميعاً في الحصول على معلومات قيمة عن المناطق التي يعتزم زيارتهـــا وفيما يلي نستعرض أهم النتائج .

بعض الحقائـــق عن الأجـزاء
الداخلية لشمال أفريقيا

يسكن التيبو غرب وجنوب وجنوب غرب فزان ، ويحكمون أيضاً الإقليم الذي يقع في المنطقة الصحراوية ما بين فزان ومصر .

ان أقرب بقعة مسكونة شمـال التيبوهي « اوجله » (Ougila) و « وسيوه » (Siwah) ويجاورهم من ناحية الجنوب العرب الرحل ومن ناحية الغرب – فيما بعد فزان – أراضي الطوارق .

وبشرة التيبو ليست سواده تماماً ، قوامهم نحيل سواعدهم مفتولة ، مشيتهم رشيقة وعيونهم ذكية وشفاههم غليظة وأنوفهـــم فطساء وليست كبيرة . شعرهم طويل جداً ولكنه أقل تجعداً من شعر الزنوج . يبدو كما لو كانت لديهم طاقات طبيعية هائلة ولا يملكون الفرصة لاستخدامها فهم محاطون بالشعوب البربرية والمسلمين ، ويتهمهم العرب بأنهم سيئو الظن غادرون مخادعون ولهذا فان أهـل فزان لا يسافرون فرادى خوفاً من بطشهم .

ولغة التيبو سريعة بصورة غـير عادية وبها حروف ساكنة كثيرة وبخاصة اللام والسين وأعدادهم كما يلي :

واحـــد	ترونـو	Trono
اثنـــين	–––	–––

ثلاثـــة	أجسو	Agesso
أربعـة	فوسو	Fusso
خمسة	فـــو	Fo
عشرة	ماركم	Markum

ويتكون لباس أهل التيبو من جلد الخراف شتاء ويلبسونه دون صوفه صيفاً ، وهم حينما يذهبون إلى فزان يلبسون كما يلبس أهـــل بورما (Burmuans) قميصاً كبيراً أزرق ويلفون رؤوسهم حتى لا يبدو منها سوى العينين ، وسلاحهم رمح طوله ستة أقدام وسكين طولها ما بين عشرة وعشرين بوصة يعلقونها على الكتف الأيسر ويلبسون حول وسطهم حزاماً من الجلد يتدلى منه جراب عرضه ثلاث بوصات .

ويتكون التيبو من قبائل عديدة يأتي على رأسها قبيلة بيلما (Bilma) ويسكن زعيمهم « ديرك » على مسافة رحلة يوم واحد من بيلما .

وقبيلة بيلما خليط من أجناس عديدة ، وقـد استطاعت أن توطـد نفسها بالقوة بين قبائل الزنوج الذين ما زالوا يعيشون في هـذه المنطقة ومعظم سكان بيلما من الزنوج بينما نجد أن سكان ديرك جميعهم من التيبو .

وتعمل قبيلة بيلما بالتجارة ما بين فزان وبورنو ، ويسافرون في جماعات صغيرة العدد ما بـــين ستة وثمانية رجال ، وهم مشهورون بسوء طباعهم ، لدرجة أن عبيد بورنو الذين اعتقوا يرفضون السفر معهم خوفاً من القتل أو السرقة .

ويدين التيبو بالإسلام ، ويقال أنهم غير متدينين . أمـا قبيلة « تيبو رشاد (Tibboes Rschade) — وهي تعني صخور التيبو — وهم يحملون هذا الإسم نظراً لطبيعة منازلهم التي تبنى من الصخور أو يسكنون في الغالب الكهوف أو الأكواخ في الصيف .

ويسكن زعيم قبيلة « تيبو رشاد » مدينة « آبو » (Abo) وهي تقع بالقرب من « تيبستي » (Tibesty) أكبر مدن هذه المنطقة . ويذهب رجال هذه القبيلة إلى فزان في جماعات كبيرة ويرتدون زي الطوارق ، ولقد رأيت عديداً منهم يرتدون جلد الخراف ، وهم كما قيل لي مسلمون متدينون .

أما قبيلة بورجو (Burgu) فهم لا يزالون وثنيين وهم يسكنون منطقة خصبة تزخر بالنخيل والبلح والكلأ .

وحدث أن قام بعض أهل بورنو بالسطو على جماعة من فزان بينما كانوا يسافرون فيما بين برجامي (Bergami) ومرزق ، وأرسل اليهم سلطان فزان جيشاً صغيراً قوامه اثنان وثلاثون فارساً وسبعون من المشاة ومائتين آخرين من قبيلة رشاد .

وسافر الجيش إلى جترون (Gatron) وهي تقع جنوب مرزق على بعد أربعة وخمسين ميلاً ثم إلى فقيري (Feqherie) وتقع جنوب غرب جترون على بعد ثلاثة وثلاثين ميلاً ثم إلى آبو (Abo) بعد سفر سبعة أيام (رحلة اليوم الواحد ١٨ ميلاً) وسرقوا مائتين من أهلها وبيع الجزء الاكبر منهم كعبيد .

وتمشط نساء قبيلة بورجو شعورهن على هيئة جدائل طويلة تتدلى خلف رؤوسهن ويقصصن شعرهن عند مقدمة الرأس . ويعاشر أهل بورجو اخواتهم البنات . وقد أكد لي عبد احد الاصدقاء ممن يتكلمون لغة التيبو انه سأل فتاة عما اذا كان اخوها هو والد الطفل الذي تحمله فلم تنكر .

وتقع بعيداً ناحية الشرق على مسافة خمسة او ستة ايام بلدة تدعى أرنا (Arna) ويسكنها قبائل التيبو . ويسكن الفيبابو (Febabo)

جنوبي جنوب الغرب من أوجله وهم معرضون لهجمات سكان بنغازي واوجله اذ يسطون عليهم ويسرقون البلح والرجال .

ولقد اوضح لي اهالي اوجله أن « فيبابو » تبعد حوالي عشرة أيام باعتبار أن رحلة اليوم الواحد واحد وعشرون ميلا وخلال الستة أيام الأولى لا يوجد ماء على الاطلاق .

ويسكن التيبو الرّحل ، (Nomadic Tibbo) أقصى الجنوب وهم يقطنون في واد خصب يسمى بحر الغزال (Bahr - el - Gasel) وهو يبعد سبعة أيام شمال برجامي .

الفصل الثاني[1]

يسكن الطوارق – ذلك الشعب العظيم – جنوب فزان ويحدهم من الجنوب الغربي بورنو ومن الجنوب بورنو والسودان وتمبكتو ، وهم يسكنون أيضاً المنطقة التي تقع شرقي بلاد التيبو وفزان ، وشمال جزء من فزان . ويتحدث العرب الذين يسكنون خلف أقاليم طرابلس وتونس والجزائر وغرب امبراطورية فاس (Fez) والمغرب حيث يوجد بعض التجمعات في سوكنا (ضمن ممتلكات فزان) وأوجله وسيوه يتحدثون لغة الطوارق فقط .

وينقسم الطوارق إلى أمم وقبائل عديدة ، ويتكلمون جميعاً اللغة الطوارقية ، وهم يختلفون في عاداتهم تبعا لاختلاف أصلهم . وسأقصر حديثي هنا على طوارق « الكولوفي » (Kolluvi) وقبيلة « هاجارا » (Hagara) وهم نحيفو القوام يميلون الى الطول ، مشيتهم رشيقة وحازمة ونظرتهم ثاقبة ، مولعون بالحرب ، تهيء لهم قدراتهم الطبيعية أن يكونوا من أعظم شعوب العالم ، وتتميز شخصياتهم وخصوصاً طوارق الكولوفي بالاتزان ، والقبائل الطوارقية الغربية بيض البشرة ، بالدرجة التي تتيحها لهم طبيعة الطقس وطرق المعيشة .

وطوارق الكولوفي الذين بلغوا أقليم آسبن (Aspen) وغلبوا أهل أجادس (Agades) واختلطوا بأهلها يختلفون في لون بشرتهم ومعظمهم

سود البشرة ولكن ملامحهم لا تشبه ملامح الزنوج . أما قبائل الهاجار فهم صفر البشرة كالعرب . ويوجد منهم بالقرب من السودان بعض القبائل ذات البشرة السوداء .

يتكون لباس الطوارق من سروال أزرق واسع وقميص من نفس اللون ذي أكمام واسعة فضفاضة يرفعونها إلى أعلى ويربطونها خلف رقبتهم حتى تتحرر سواعدهم .

وهم يلفون رداء أزرق حول رأسهم ولا يظهر منها سوى عيونهم ، وقاموا بقص شعورهم بعد اعتناقهم الاسلام وتركوا بعضاً منهم على قمة رأسهم العارية .

ويلفون حول وسطهم حزاماً قاتم اللون ويعلقون على أكتافهم نسخة من القرآن داخل كيس من الجلد إلى جانب بعض السهام والقوس . ويحملون في أيديهم حراباً جيدة الصنع يبلغ طولها خمسة أقدام ويلبسون حوله زنودهم وقرب الابط شارتهم المميزة وهي حلقة من مادة قرنية أو من الحجر .

ويلبسون أيضاً قميصاً سودانياً ويعلقون سيفاً طويلاً عند الكتف . ويتسلح التجار بالبنادق ويستخدم الآخرون السيف فقط والحراب والسكاكين التي يحملونها دائماً على ساعدهم الأيسر وتبدو يد السكين النحاسية لامعة دائماً وهم يحتفظون بطريقة صنعها سراً .

ويشتغلون بالتجارة فيما بين السودان وفزان وغدامس ، وتمنح قوافلهم الحياة لمرزق إذ تبدو بدونهم صحراء موحشة فهم يملأونها حركة وغناء .

والطوارق ليسو جميعاً من المسلمين ، وعلى سبيل المثال فان الطوارق البيض الذين يسكنون تاجاما (Tagama) بالقرب من السودان وتمبكتو يدينون بالوثنية ، ويوجد بعض المسيحيين – كما علمت – إلى جوار تمبكتو أيضاً

ويسمونهم النصارى ، ويقطن بها كل من هم غير مسلمين .

ويعيش معظم طوارق الجزء الشمالي حياة تجوال ، ولا تجد في هاجارا أكثر من خمسة وعشرين او ثلاثين منزلا حجرياً - ويختلف الحال في وقت السوق إذ تجد مئات من الخيام الجلدية منتشرة بالقرب من هاجارا .

الفصل الثالث

وتقع خلف البلدان السابقة « تمبكتو » ، ونظراً لأني لم استطع الحصول على معلومات ذات قيمة فليس لدي ما اقوله عنها ، وعلى اية حال فهي تعد من أشهر البلدان في افريقيا .

والى الشرق من تمبكتو تقع السودان أو هاسا (Haussa) او سنا (Asna) والتسمية الأولى عربية أما التسمية الثانية « هاوسا » فهي اللفظة التي يطلقها السودانيون على وطنهم ، اما الاسم الأخير فهو اسم بورروني . ومن بين الاسماء الثلاثة اخترت الاسم الثاني لأنه الأنسب بالاضافة إلى انه مفهوم لدى العرب الذين يسكنون بالقرب من السودان وكل المناطق التي تقع جنوب جادن (Ghaden) .

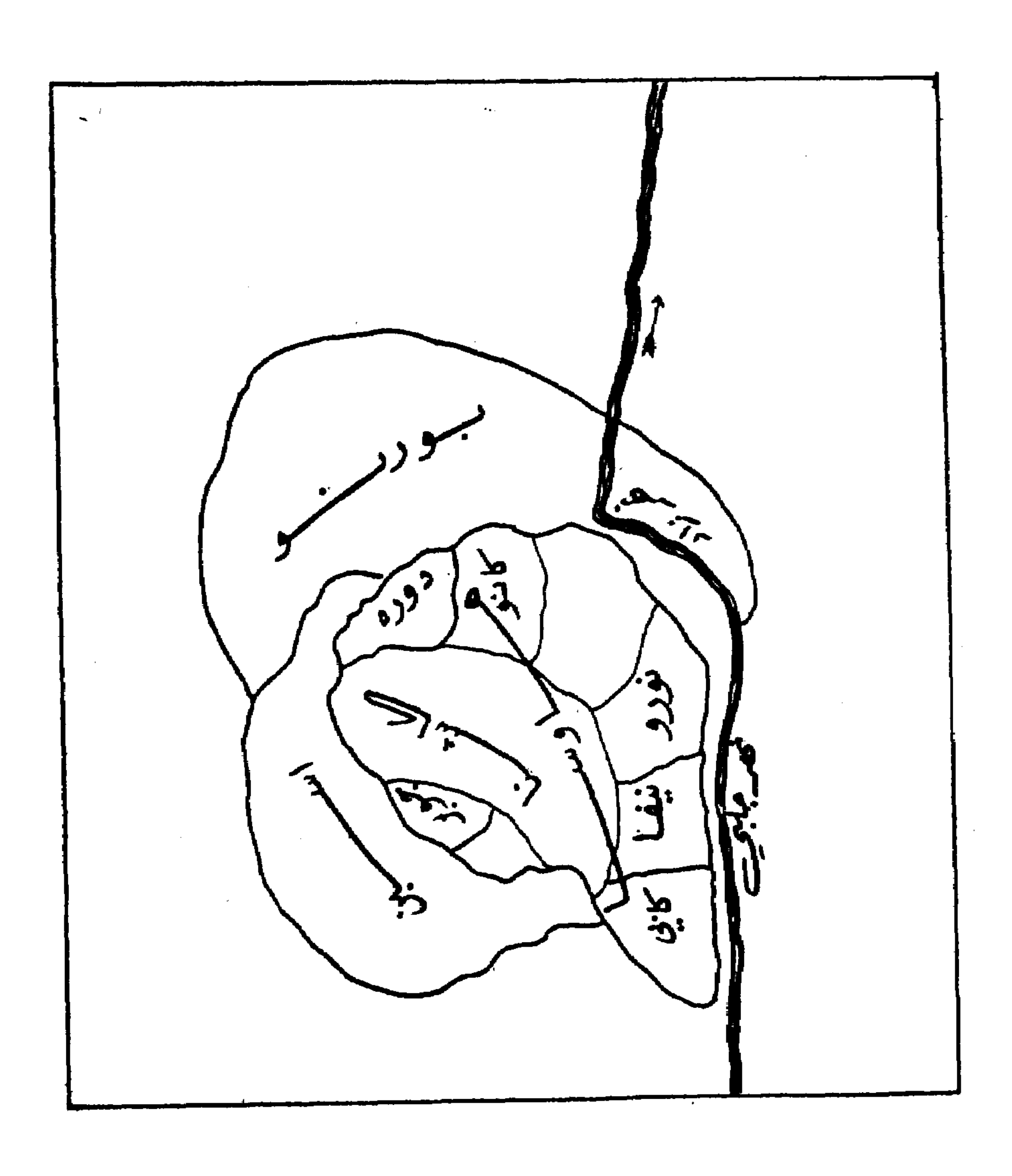
والاسم البورروني « آسنا » يقصد به « كانو » (Kano) وكاشنا (Kashna) فقط اما الجزء الذي يقع شرق آسنا فيعني تمبكتو .

وقد اعطاني احد سكان « هاوسا » رسماً يوضح موقع كل اقليم بالنسبة للأقاليم الأخرى (انظر شكل (١))

لاحظ مواقع الاسماء التالية :

كابي	كانو	جوبر
نيفا	دوره	
نورو	كاشنا	

اما المقاطعة البيضاء بين نورو وكانو فهي « سولان » .



والأراضي التي يحدها الخطر القائم هي « هادسا » وقد أضاف صديقي الأسود « آسبن » (Asben) . ويحكم السلطان هذه الاقاليم ويعتبر اقليما كاشنا وكانو أقوى هذه الأقاليم ولكنها جميعاً تدفع الجزية للسلطان ما عدا كابي (Cabi) أونيفه (Nyffé) نظراً لبعدها .

واقليم زامطرة (Zamtara) متحد مـــع اقليم جوبر (Guber) والجدير بالذكر أن سلطان جوبر استولى على زامطره وقتل سكانها وباع كل الأسرى الذين قبض عليهم .

وسكان « هاوسا » زنوج ولكنهم ليسوا سوداً تماماً ، ولعلهم من أذكى سكان قلب أفريقيا ، ويمكن أن نميز بين أهل « هاوسا » والأقاليم المجاورة ، فأنوف أهل هاوسا صغيرة غير مفلطحة وقامتهم أكثر اعتدالاً من قامة الزنوج ولديهم ميل غير عادي للمرح والرقص والغناء وطباعهم هادئـــة يميلون إلى المسالمة وروح الخير .

وهم يفوقون أهل فزان في الصناعة والفن والزراعـة وتعتمد عليهم فزان في توفير الملبس والأدوات المنزلية ، ويقومون أيضاً بصباغة الملابس بكل الألوان ما عدا اللون القرمزي ، وهم يحرثون أراضيهم بطريقة ممتازة كما يفعل الأوربيون بالرغم من انهم يسلكون أساليب شاقة .

وباختصار فليست لدينا فكرة كاملة عن هؤلاء القوم فيما يتعلق بثقافتهم وقدراتهم الطبيعية وطاقاتهم المختلفة .

وموسيقاهم متخلفة إذا قورنت بالموسيقى الأوربية وزوجات رجـال « الهاوسا » لديهن القدرة على التأثير في أزواجهن وشحذ هممهم ضد الأعداء.

ويطلق لفظ الكادنكا (Kadanka) على المغنيات والداعرات .

الفصل الرابع

وإلى الشرق من « هاوسا » توجد ممتلكات سلطان بورنو ، ويبدو من الواضح أنها ازدادت اتساعاً منذ كتابات ليوافريكانوس (Leo Africanus) فقد انضمت إليها عدة أقاليم كان « أفريكانوس » قد اعتبرها مستقلة مثل وانجارا (Wangara) وكوجا (Cauga) .

وسلطان بورنو معروف بقوته ، وكل جيرانه يدفعون له الجزية ، وهو يمتلك أراضي واسعة ، ولكنه يضيف إليها الكثير عن طريق غزواته على جيرانه .

وأهل بورنو زنوج تماماً وأكثر سواداً من أهل « هاوسا » وأقوى بنياناً منهم . يتميزون بالصبر والجلد على العمل ورباطة الجأش ، وهم أكثر قسوة من أهل « هاوسا » . ويولع رجالهم بالنساء البدينات بينما نجد السودانيين يفضلون النسوة الرشيقات .

وغذاء أهل « بورنو » الوحيد هو عجينة من الدقيق واللحم وشرابهم نوع مسكر من البيرة . وإنتاجهم « الطبيعي » هو النحاس ، ويقال انه موجود بكميات قليلة بينما يوجد الذهب في تمبكتو والسودان ، وعملة بورنو هي الجنيهات الذهبية .

وإلى الشمال تقع (Kanena)ويسكنها الكوجان(Kojan) وقد اشتق اسمهم من طعامهم المكون من لبن البقر ولحم الخراف .

وإلى الشمال الشرقي تقع بيجارمي (Begarmé) وهي عاصمة « مسنا » وتشتهر بيجارمي بتجارة العبيد .

وإلى الجنوب من بورنو تقع مارجي (Margi) وكوجا ، وإلى الغرب أنجورا أو وانجارا وكلها تخضع لسيطرة الحكام الذين يعينهم السلطان .

الفصل الخامس

وهناك الى الشمال الشرقي تقع « لوسي » Lussi ويسميها أهلها فيدري (Fiddri) ويسميها الذين يسكنون الشرق كوجو (Couga).

وتقع فيدري حول بحيرة تحمل نفس الاسم ، وهذه المملكة كانت تعد من أقوى البلاد اندثرت هذه الأيام بسبب غدر سلطان « بيجارمي» وسلطان « وادي » (Wadey) .

ويسكن الوطنيون في أكواخ صغيرة ويفضلونها على المنازل ويقال أنهم غير متمدينين. ولا يوجد الملح في هذا الاقليم ولكنهم يحصلون عليه بالطريقة التالية – يقومون بحرق كميات كبيرة من القصب ويجمعون رماده ويضعونه في سلال ويصبون عليه الماء ويجمعونه بعد أن يتخلل القصب ثم يقومون بغلي هذا الماء حتى يترسب الملح .

والى الجنوب الشرقي من فيدري تقع « ميثو » (Metho) وهي اقليم مستقل وتقع في منطقة جبلية والى الشرق تقع « وادي » (Wadey) وكانت قد قسمت مؤخرا الى ولايات صغيرة عندما غزاها العرب وأصبحت مملكة واحدة واللغة الرئيسية هي العربية ويوجد إلى جانبها عشر لغات أخرى .

ويحتل العرب كل المنطقة ما بين « وادي » وبيجارمي شمالاً . والى الشرق من « وادي » تقع دارفور حيث يجري أحد الأنهار ويزرع على

جانبه قصب السكر ، ويجري هذا النهر خلال « وادي » ويصب في بحيرة « فيدري » التي أشرنا إليها .

وبلغتني معلومات متباينة حول محيط هذه البحيرة ، فمثلاً يقال انه خلال المواسم المطرة تزداد مساحتها إلى الضعف حتى تبلغ الرحلة ما بين جانبيها من أربعة إلى ثمانية أيام .

الفصل السادس

يمتد النهر الذي رآه السيد « بارك » في رحلته إلى تمبكتو جنوباً من « هاوسا » وبردى « نيفا » (Nyffe) و « كابي Cabi » حيث يسمى « جابي » (Julbi) ويجري شرقاً في بورنو حيث يأخذ أسم « زاد » (Zad) أي البحر العظيم ويسمى (جاورا Gaora) أو الماء الوافر في بعض أجزاء « هاوسا » .

وأجابني كل من سألتهم من « بورنو » و « هاوسا » بأن هذا النهر يجري خلال أرض « ماجيز » (Magies) وقرر آخرون أنه يمر بدارفور شرقاً ويجري حتى القاهرة ملتقياً بنهر النيل.

وأخبرني مصري من « أسيوط » سافر عدة مرات إلى دارفور وجنوبها لجمع العبيد ، وعاد مؤخراً عبر « وادي » و « فيدري » و « برجامي » إلى فزان ، أخبرني أن النهر الذي يدعى « البحر الأبيض » (Bahr - el - Abiad) هو ذات النهر .

ولم أستطع رغم قيامي باستفسارات كثيرة أن أحصل على معلومات بصدد بحيرة كبيرة تقع في هذا المكان .

وإلى جانب هذين النهرين يوجد سبعة أنهار صغيرة في « هاوسا » ، وهي تصب في « جلبي » (Julbi) بالقرب من « بيرا » (Berra) .

وهناك إلى الشمال من بورنو يختفي نهر بين الجبال ، ويقال انه يغور

في الأرض . وكل هذه الأنهار جافة خلال موسم الجفاف وتزخر بالمياه خلال شهور المطر .

وعلمت أن عرض « زاد » حوالى ميل واحد ، وأخبرني آخرون أن عرضه ميلان ، وخلال الشهور المطرة يبلغ عرضه رحلة يوم (حوالي ثماني ساعات) .

ويعيش « البودوماس » (Budumas) في وسط النهر وهم قـــوم متوحشون وثنيون .

ان المعلومات السابقة هي أفضل ما استطعت أن احصل عليــه عن مداخل افريقيا ، ولقد تغاضيت عن ذكر الرجال ذوي الذيول وعديمي الرقبة وهم يعيشون وسط البحر فقط .

من السهل أن أكتب عديداً من الرسائل حول قلب افريقيا ولكني أخشى أن أنقل معلومات خاطئة أو غير حقيقية .

وعلى أية حال ، الست عائداً إلى انجلترا ؟ ولهذا أرى أن احتفظ ببعض المعلومات الجديدة المشوقة حتى تكون مبرراً لرحلتي .

ان لم ألق حتفي خلال رحلتي هذه ، أرجو خـلال الخمس سنوات التالية أن اقدم للجمعية معلومات مفصلة عن هؤلاء الناس الذين أشرت اليهم في ايجاز .

توقيـــع

فريدريك هورنمان

عام ١٧٩٨

مقتطفات من خطاب آخر لهورنمان ورد مع الخطابات السابقة بتاريخ ١٩ أغسطس ١٧٩٩ ومكتوب بطرابلس .

« بعد رحلة لمدة أحد عشر يوماً من سيوه سافرنا في أربعة أيام منها ثمانية عشر ساعة في اليوم الواحد خلال الصحراء ، وصلنا أوجله وهي مدينة صغيرة فقيرة وتقع في دائرة طرابلس . وبعد رحلة لمدة ستة عشر يوماً أخرى بلغنا تمسة أول قريـــة في فزان . وخلال سبعة أيام من الرحلة السابقة مررنا خلال صحراء ذات صخور سوداء ربما كانت أسوأ الطرق في العالم والتي نتجت بكل تأكيد عن ثورات بركانية ، وهي تسمى الهاروج (Harutsch) وهي تمتد بعيداً الى الجنوب الغربي .

وفي الطريق الى مرزق مررنا على زويله ، تويله (Tuila) وتراغني (Tragan) وتسمى مرزق « فزان » أيضاً ويسميها أهـــل بورنو زيلا (Zela) :

وتقع مرزق على خط عرضي ١٥ً ٥٤َ ٢٥°

وفيما يتعلق بقلب افريقيا فقد قمت بجمع كل ما يمكن الحصول عليه من معلومات وسأرسلها لكم في أول فرصة واليكم بعض المعلومات .

ان النهر المسمى نيجر (Niger) يطلقون عليــه في السودان اسم « جلبي » (Gulbi) أو « جـــاورا » (Jaora) ويسمونه في بورنو « زاد » (Zad) وهو نهر كبير جداً يصب فيه أكثر من اثني عشر نهرا أخرى ويـأتي من تمبكتو ويجري جنوبي السودان وفي امبراطورية بورنو حيث يتخـذ مساره إلى الجنوب ثم يصب جنوبي دارفور في نهر النيل (فيما يتعلق بهذا الخصوص لم أجد فرداً واحداً يردد العكس) .

وهناك نهر آخر يأتي من دارفور ويمر خــلال « وادي » وميثو (Metho) ثم ينتهي إلى بحيرة كبيرة تسمى فيـــدري (Fiddri) ويسميها من يسكنون شرقها كوجو (Cougo) ومن يقطنون ناحيـة الغرب لوسي (Lusso) .

ويبلغ محيط « فيدري » أربعـة أيام وخلال أيام ، المطر تزداد بصورة كبيرة وتغطي المناطق المجاورة وبعد أن ترتد المياه تحرث الأراضي التي انحسرت عنها وتزرع .

وبالقرب من « مسـنا » (Mesna) عاصمة برجامي (Bergamé) يوجد نهر كبير خلال أشهر المطر فقط .

أما بحر الغزال (Bahr - el Gasel) أو وادي الغزال (Wady el Gasel) فهو ليس بحراً وانما هو وادي خصيب يسكنه التيبـو ويبنون منازلهم من الجلد .

ان مملكة بورنو هي أقوى ممالك قلب أفريقيا وبالقرب منها سلطنة أسبن (Asben) ويسكن السلطان مدينة « أجادس » (Agades) .

وتدفع معظم البلدان التي يتكون منها « هاوسا » جزية للسلطان وهـي كاشنا (Kashna) ودورا (Daura) وكينو (Keeno) وسوفاو (Sofau) ونورو (Noro) ونيفا (Nyffè) وجـاوري (Gaouri) وكابي (Cabi ، وجيوبر (Guber) زنفرة (Zanfara) تتبـع جيوبر .

وتدفع كاشنا مائة عبد سنوياً يدفع بعضهم الى « بورنو » و « آسبن » . ينتمي ملك آسبن (Asben) وعدد كبير من رعاياه إلى قبيلة « كولوفي » (Kolluvi) الطوارقية .

عدد كبير من الطوارق الذين يسكنون بالقرب من « تمبكتو » بيض البشرة ، وهناك بالقرب من بورنو بيض البشرة أيضـاً كالعرب الذين يسكنون الساحل الشمالي لأفريقيا .

« وتدفع « بيرجامي » الجزية الى بورنو ويعين السلكان حكام كل من أنجورا (Ungura) وكوجو (Cougu) » .

« وتقع بورنو وفزان على نفس خط الزوال (Meridian) وتبعد بورنو عن كاشنا خمسة عشر يوماً أي حوالي ٣٣٠ ميلاً وتقع بحيرة « فيدري » شمال شرق بورنو وعلى بعد ٢٥ يوماً ، ولا يوجد لدى أهل « فيدري » ملح ولكنهم يحصلون عليه من الرماد « جزء كبير من أهل وادي (Wadey) وملكهم أيضاً من العرب » .

« إلى الجنوب الغربي من أوجله وعلى مسافة ٢٠٠ ميل أو رحلة لمدة عشر أيام توجد فيبابو(Febabo) وعلى عدة أيام أخرى في اتجاه الجنوب توجد بيرجو (Birgu) وكلاهما من ممتلكات التيبو ، وهي أراضي خصبة ، ويقال عن التيبو أنهم وثنيون .

ويردد أهل أوجله عن أهل تلك القبائل ما قاله هيرودوت عن الترجلوديت (Troglodyte) « ساكني الكهوف » الأثيوبيين الذين يصطادهم الجرمنت في أن لغتهم تشبه تغريد الطيور .

لعل من أكثر شعوب أفريقيا تشويقاً وإثارة هم الطوارق (Tuarick) أطلق عليهم ليوأفريكانوس (Leo Africanus) اسم طرجى (Terga) وهم يحكمون المنطقة الواقعة ما بين فزان وغدامس وامبراطورية المغرب وتمبكتو والسودان وبورنو وبلاد التيبو .

وينقسم الطوارق إلى قبائل ومنها قبيلة « كولوفي » وهي تعيش في أسين ، وقبيلة هاجارا وتسكن بالقرب من فزان .

المسحمون والرجال ذوو الذيول أعتقد أنه من الصعب العثور عليهم في أعماق افريقيا ويسمي المسلمون كل من ليس على دينهم بالنصارى ،

ولم أسمع أي خبر عن رجل ذي ذيل إلا أن أحدهم (غير موثوق به) قد أخبرني أنهم يوجدون على مسافة عشرة أيام جنوب كانو (Kano) ويسميهم (Yem - Yme) كما يوجد أيضاً أكلة لحوم البشر . وعلى أية حال سأكون خلال عشرة أشهر بالقرب من هذه الاماكن .

وختاما أرجو لكم دوام الصحة .

فريدريك هورنمان

ملاحظات جغرافية لمسار هورنمان
واضافات الى الخريطة العامة

بقلم : ميجور رينيل



الجزء الاول

سأحاول في تلخيصي للبنـاء الجغرافي لرحلة السيد هورنمان أن أولي اهتمامي للحقائق العلمية مؤجلا التفاصيل الى القريب حينما تصلنا معلومات أكثر . وبالرغم من ان المعلومـات التي وصلتنا من هورنمان على جانب كبير من الأهمية الا انها لا تكفي للبناء الجغرافي الرياضي الحسابي .

ولحسن الحظ فان ملاحظات براون والآخرين تعطي قيمة أكثر لابحاث هورنمان اكثر من الفائدة التي تعطيها كل على حدة .

وبالاشارة إلى الخرائط المعـدة لهذا الكتاب نجـد ان المواقع الجغرافية للقاهرة والاسكندرية وفزان قد اعتراها تغيير طفيف ، وتمشياً مع المعلومات الحديثة والتي يفترض دقتها فان القاهرة تقع – طبقـاً للمعلومات الفرنسية – دقيقتين أبعد إلى الغرب والاسكندرية ثلاثة عشر دقيقة وتقع مرزق عاصمة فزان تسعة وثلاثين ميلا إلى الجنوب الشرقي .

وبالاضافة إلى ذلك فهناك بعض التعديلات الطفيفة في مواقع سيوه ، الباريتون (El-Bareton) أو الباريتونيوم (El - Paretonium) ولكنها بصفة عامة انحرافات يمكن اهمالها .

١ – من القاهرة الى سيوه :

يمكن أن تعتبر الوقت الذي استغرقه هورنمان هو ١٢٣ ساعة وعلماً بأن المعدل العادي لسير القافـلة ٢,٠٥ ميلا جغرافياً في الساعة ، فان هذا يعني أن المسافة ٢٥٢ ميلاً جغرافياً .

وإذا حسبت المسافة على أساس أن معدل القافلة في الساعة هو ٢٫٥ ميلا بريطانياً تخفض بنسبة ١/٢٠ نظراً لوجود تعرجـــات وانثناءات بالطريق (علماً بأن طرق الصحراء مستقيمة بصفة عامــة) فان المسافة في هذه الحالة تكون ٢٥٥ ميلا .

وكان تقدير السيد براون (تبعاً للمسار الذي اتخذه من الاسكندرية حتى « باريتونيم » (Parœtonium) ومنها انحرف إلى الداخل هـــو ٢٥٩ ١/٢ بزيادة قدرها ٤ ١/٢ ميلا عن الحد الأقصى ، ٧١/٢ ميلا عن تقرير هورنمان . ولقد سار السيد براون ٧٥ ١/٢ ساعة بحذاء الشاطىء قبل أن ينحرف في اتجاه ١٩ درجة جنوب الغرب ويمضي ٦٢ ١/٤ ساعة ساعـــة أخرى قبل أن يصل إلى سيوه متخذاً مساراً يوازي خط عرض ١٢ ٢٩ .

وإذا أخذنا في الاعتبار تعرجات الطريق الذي اختاره فربما لا نجد أكثر من ١٤٤ ميلا يمكن تجنبها في طريق مباشر .

وطبقاً لحساب دانفيل (D'Anville) لا بد أن يكون موقع السيد بروان – الذي حدد بـ ٢٠ ميلا شرقي باريتونيم – هو خط عرض ٣١ ٧ حتى يمكن ان يقطع مساره (١٩ درجة جنوب غرب خط الطول ٢٤ ٢٦) في حين كان تقدير هيرودوت للمكان في كتابه صفحة ٥٧٤ هو ٣٠ ٢١ ٢٦ .

ولقد اخترت تقدير السيد بروان بالرغم من اختلافه عن التقديرات الأخرى نظراً لأنه لا يمكن الاعتماد على تقديرات السيد هورنمان حيث فقد أوراقه كما سبق أن اوضحنا .

والجدير بالذكر أن اهل سيوه يحددون المسافة باثنتي عشرة رحلة فقط ولا بد هنا ان تحدّد نوع هذه الرحــلات حتى يمكن تفسيرها . ويقصد

بهذه الرحلات تلك التي يقوم بها المسافرون في مجموعات قليلة العـــدد ولا في قوافل كبيرة حيث يتطلب الأمر وجود أعداد كبيرة من الجمال مما يؤدي حتما إلى بطء السير .

ويحدد السيويون المسافة كالآتي :

من سيوه الى شرقي (Charje) في الواحات العظمى		١٢ يوماً
درنـــه		١٤ »
الفيوم	عبر الواحات الصغرى	١٢ »
القاهرة		١٢ »

وواضح أن معنى ذلك ان المتوسط العام لرحلة اليوم هي ٢٠,٦ ميلاً وهو بالنسبة للرحلة ما بين « سيوه » و « شرقي » ٢/٣ ١٩ ميلاً والرحلات الأخرى ٢|١ ٢١ ميلاً .

وبما أن سيوه تقع مباشرة ما بـين الواحات الكبرى ودرنه فان الطريق يستغرق ٢٦ يوماً وهو تقدير معقول ، وهنا نجد أن المتوسط هو ٢٠,٦ ميلاً في اليوم الواحد .

ان رحلة اثني عشر يوماً تعطي ٢٤٧ ميلاً فقط ولهـــذا فان العدد المطلوب ٢/١ ٢١ ميـلاً للرحلة ما بين القاهرة وسيوه ، وقـــد أوضح بليني (Pliny) أن ما بين ممفيس وآمون مسافة اثني عشر يوماً بمعدل ٢١ ميلا ، أما في حالة القوافل الكبيرة فان رحلة خمسة عشر يوماً تعطي ٢/١ ٢٤٧ ميلاً أي أنها تساوي رحلة ١٢ يوماً لقافلة صغيرة .

ولقد اخترت المسافة لتكون ٢/١ ٢٥٩ ميـلاً ، وعلى أية حال لن تبعد كثيراً عن خط الطول المحدد لها . وكيف لنا أن نصل إلى حقائق دقيقة في حين أن خطوط الطول للمناطق الساحلية لا زالت موضع أخذ ورد !

ويبدو أن السيد براون قـد أمضى سبعة عشرة يوماً ما بين موقعه المحـــدد بخط العرض ٤٠ ٢٨ القريب من جنوب غرب سيوه حتى الاسكندرية ، أي بمعدل ٢/١ ١٥ ميلا في اليوم الواحد . ولكن يجب أن

نأخذ في الحسبان أن براون كان مريضاً طيلة الرحلة ، ولا بد أن ذلك قد أثر على القافلة .

٢ – من سيوه الى اوجلة :

ان الوقت الذي استغرقه السيد بروان فيما بين سيوه وأوجـــلة هو ٧٨ ١/٢[١] ساعة واذا افترضنا معدلا ٢,٠٥ ميلاً جغرافياً للساعة الواحدة فان هذا يعطي ١٧٩,٣٥ . واذا اخذنا معدلا آخر ٢ ١/٢ ميلا (بريطاني) كما اعتبرنا من قبل – فان هذا يعطي ١٨١ ١/٢ .

ولو افترضنا انه امضى احد عشر يوماً بمعدل ١٦ ١/٢ ميلاً فان هذا يعطي ١٨١ ١/٢ ميلا ايضاً .

وقد حدد الجغرافيون المسافة بعشرة أيام بمعدل ١٩ ميلا جغرافياً في اليوم ، ولقد قطع هيرودوت المسافة ما بين آمون واوجله في عشرة أيام .

من المؤكد أن مخطوطات السيد بيوفوي (Mr. Beaufoy) تحدد المسافة عبر وادي « جغبوب » (Gegabib) بثلاثة عشرة يوماً ، وتبعاً لمعلومات السيد براون فان هذا الوادي يقع شمال غرب سيوه في حـين ان المسار المعتاد عن طريق شياشة .

ويبـدو انه من الصعب ان نفترض أن الطريق الشمالي أبعـد بحوالي يومين عن الطرق الأخرى .

وكما عرفنا فان السيد هورنمان قد فقد أوراقه في « شياشة » وربما لم يستطـع أن يتذكر التوقيت الدقيق للثلاثة أيام الأولى قبل وصوله إلى هذا المكان .

---

(١) من سيوه الى وادي شياشة ٢٣ ميلا
الى ترفك ٦,٠ »
حتى حدود اوجله ٤٩ »
الى اوجله ٩ »
٨٧,٠ ميلا

وعلى أية حال فقد اخترت المسافة لتكون ١٨٦ ميلاً كمتوسط بين تقريرات السيدين هورنمان والادريسي .

ان السيد هورنمان لا يستطيع أن يستنتج رقماً دقيقاً للمسافة ما بين « أوجله » وبنغازي ولقد ذكر الادريسي بهذا الصدد أن المسافة تبلغ عشرة أيام من « بركة » (Barca) وبمعدل ١٩ ميلاً في اليوم الواحد ليقابل خط السير خطاً من سيوه عند خط عرض ٧ ٣٠ بانحناء قدره ١٩ درجة شمال غرب سيوه .

بينما يتضح أن الرأي الشائع أنهما يقعان على خط واحد تقريباً[1] .

أما ديلسيل (Delisle) ودانفيل (D'Anville) فقد بالغا في تقدير المسافة عما حددها الادريسي ، إذ حددها الأخير بـ ٢١٥ ميلاً من بركة (Barca) .

وقد حدد بطليموس (Ptolemy) أن الفرق ما بين موقعي درنه وأوجلة (Augila) بثلاثة خطوط عرض و ١٦ دقيقة . وتبعاً لتقديره فان أوجله يمكن أن تظهر في الخريطة على خط عرض ١/٢ ٢٩ ولقد أوضح بطليموس أيضاً أن آمون (سيوه) وأوجلة تقعان على خط يوازي ساحل البحر ما بين باريتونيم ودرنه ، ورغم ما يعتقده بطليموس فان الساحل يبعد عما حدده إلى الشمال الغربي .

ويبدو أن خطوط الطول التي تظهر في خرائط « دانفيل » تبدو متباعدة عند الغرب وذلك في المنطقة التي تقع على الساحل بالقرب من بركة (Barca) .

ولقد حدد لوكاس (Lucas) المسافة ما بين أوجلة وبنغازي بأحد عشر يوماً .

---

(١) وصفهما ابو الفداء وبطليموس بأنهما يقعان على خط واحد وكذلك علم ليديارد (Ledyard) عندما كان بالقاهرة .

٣ – من أوجلة إلى فزان

لم يقدم هورنمان توقيتا منتظما بالساعات طوال الرحلة ، وربما يرجع هذا للارهاق الذي تعرض له في جبال الهاروج . وكان يعطي التوقيت باليوم وهو يمتد في العادة من الصباح حتى المساء . وكل ما نستطيع أن نفعله بهذا الصدد أن نحول هذه الأيام الى ساعات ونضيف اليها ما ورد بالمذكرات لنجد أن المجموع الكلي حوالي ١٩٥ أو ١٩٦ ساعة .

واذا أخذنا في الاعتبار رداءة الممرات في جبال الهاروج فان التوقيت السابق يعطي حوالي ٣٩٥ ميلا [١] .

وقد حدد السيد دلسيل المسافة بحوالي ٤٠٥ أميال أي بزيادة عشرة اميال عن التقدير السابق وربما توصل الى هذا الرقم من يوميات الرحالة

---

(١)

	ساعة
من أوجله الى جبال (Moraiyé)	٢٦
الى وادي السلطان	١٨
عبر وادي سلطان منطقة الغابات	٣٤
الى بداية جبال الهاروج السوداء	١٠
الى الواحة عند الهاروج	٤
الى نهاية جبال الهاروج	٤٠
عبر جبال الهاروج البيضاء	١٥
الى حدود فزان	٤
الى تمسة	٩
الى زويلة	٦،٥
حمارا (Hamara)	٧
تراغن (Tragan)	١٠،٧٥
سيدي بشير	٨
مرزق	٣
	١٩٥،٥

الجدد فهم يقومون برحلات كثيرة ما بين اوجلة وزيله وهي تبعد عن مرزق حوالى ٦٠ ميلا .

وفيما يتعلق بالمسافة بين القاهرة وفزان فانه استناداً إلى معلومات السيد هورنمان يمكن تحديدها بحوالي ٨٢٩ ميلا جغرافياً .

وقد حددها كل من براون وليدبارد بأنها خمسون يوماً وبمعدل قدره ١٦ ١/٢ ميلا في اليوم الواحد فان المسافة تكون ٨٢٥ ميلا جغرافياً .

وقد حدد (الادريسي) ما بين القاهرة وتمسة بأربعين يوماً ، وبمعدل تسعة عشر ميلا لليوم الواحد تكون المسافة ٧٦٠ ميلا جغرفيا . واذا أضفنا للتقرير السابق ٧٣ ميــلا وهي المسافة التي حددها هورنمان لما بين تمسة ومرزق حينئذ تكون المسافة الاجمالية ما بين القاهرة ومرزق ٨٣٣ ميلا عبر بهنسا (Bahnasa) والواحـــات الصغرى بالقرب من سيوه وإلى جنوب أوجله حتى وادي السلطان[1] .

ويتضح لنا انه لو كانت أوجلة تقع بعيداً إلى الجنوب او انها اقرب الى الخط ما بين القاهرة وفزان فان هذا سيطيل المسافة بحوالي عشرة او اثني عشر ميلا .

وفيما يلي مقارنة بين مختلف المصادر

هورنمان	٨٢٩	
براون ، ليدبارد	٨٢٥	٨٢٧ المتوسط
الادريسي	٨٣٣	
الادريسي وأبو الفداء محسوبة من سيوه فقط ثم إلى أوجلة وزالا		٨٧٧

(١) حدد هيرودوت المسافة ما بين وادي سلطان وطيبة بعشرة ايام

بقياس البعد على الخريطة [١]   ٨٥٤

ومن الأرقام السابقة يتضح لنا أن الفرق مـــا بين تقدير هورنمان والمعدل الأخــير هو ٢٥ فقط ، وتقل حسابات براون وليديارد عن حسابات هورنمان أربعة أميال فقط بينما نجد أن تقديرات الرحالة العرب يجب أن تستبعد من المقارنة .

٤ – موقع مرزق (عاصمة فزان)

لقد حدد هورنمان موقع مرزق بخط العرض ١٥ ، ٥٤ ، ٢٥ وهو ما يختلف عن المصادر الأخرى ولذا وجب علينــا أن نختبرها جميعــاً ... وتختلف المصادر المستقاة في تحديدها لموقع مرزق عمـــا نشرته الجمعية الأفريقية ١٧٩٨ بحوالي درجتين وسأستمر في عرض هــذه المصادر دون محاولة لتصحيح هذه الأخطاء .

(١) من بيانات استقاها السيد بويفورد من أحد التجار في طرابلس تقول ان ١/٢ ١٧ رحلة في خط عمودي إلى الجنوب تبــدأ من مصراته وتنتهي في مرزق . وإذا افترضنا أن رحلة اليوم الواحد حوالي ٢٠ ميلاً بريطانياً خلال ثمان ساعات ولنقل ١٥ ميلاً جغرافياً - من خلال خبرتي – اتضح أن الطرق الصحراوية تغلب عليها الاستقامة ولهذا سأفترض ١٦٫٥ ميلاً بدلاً من ١٥ ميلاً . وبهذا يمكن لسبع عشرة رحلة ونصف أن تقطع ٣/٤ ٢٨٨ ميــلاً ولنقل ٢٨٩ . وإذا افترضنا أن مصراته تقع على خط عرض ١٠ ٣٢ فلا بد إذن أن تقع مرزق على خط عرض ٢ ٢٢ ٢٧

(٢) ومن خلال معلومات مستقاة من نفس المصدر السابق تقول ان

---

(١) في جغرافية هيرودوت ص١٦٧ المسافة ٨٦١ ميلاً والخلاف مرده اختلاف المساقط التي رسمت بها الخرائط – هيرودوت المسقط الكروي أما المسقط الحالي فهو المسقط المستقيم.

الرحلة من طرابلس إلى مرزق هي ٢٣ يوماً عن طريق غريان وسوكنا ، مع العلم بأن المسافة ما بين طرابلس وفزان عن طريق مصراته ٢٤ ١/٢ يوماً أي أن المسافة عن طريق سوكنا أقصر الا انها لا تستخدم كثيراً نظراً لعدم توافر احتياطات الامان بها .

وبالتقاء خطين أحدهما من أوجلة يمتد ٣٩٥ ميلا جغرافياً وآخر من مصراته وطوله ٢٨٩ فان هذا يحدد موقع مرزق على خط عرض ٢٣ ٢٧ وعلى بعد ثلاثين ميلا شرق خط الزوال من مصراته .

وبالتالي فان درجة الانحراف ستكون ١/٢ درجة الى جنوب الشرق بدلا من الجنوب كما ذكر من قبل .

(٣) أشار الادريسي بأن المسافة ما بين سرت وزويله هي تسع رحلات بافتراض أن الرحلة تسعة عشر ميلا أي ان المسافة هي ١٧١ ميلا جغرافياً .

ولقد كانت زويله في خط سير هورنمان تبعد حوالي ستين ميلاً جغرافياً الى شمال شرق مرزق ، وتبعاً لما اورده السيد دانفيل فان سرت تقع على خط عرض ٢٨ ٣٠ ، وبالتالي فان زويله – بافتراض انها تقع على نفس خط الزوال – تقع على خط عرض ٣٧ ٢٧ الى شمال مرزق . وتبين لنا فيما بعد أن زويله تقع الى الجنوب الغربي ٦ درجات وحينئذ لا بد أن تقع مرزق عند جنوب خط عرض ٢٣ ٢٧ أو نحو ذلك .

(٤) علم ليديارد أن أوجله تقع غربي « سيوه » و « ودان » و « زالا » وتقع غرب الجنوب الغربي لأوجله .

ولقد أعطى هورنمان نفس المعلومات السابقة حينما قال « سافرنا جنوب غرب أوجله » ولسوء الحظ فان هورنمان لم يذكر المسافة بين فزان وطرابلس بالرغم من أنه قام برحلة فيما بينهما .

(٥) زالا وتسمى أيضاً ودان ، وتقع كما قال الادريسي في كتابه ص ٤٠ « في منتصف الطريق بين أوجله وزويله أي أنها تقع على بعد عشرة أيام من كل منهما ، وعلى مسافة تسعة أيام جنوب شرق سرت » .

وبنظرة إلى الخريطة المرفقة ستبين لنا استحالة هذا التقرير ، إذ أن مرزق لا بـــد وأن تكون في أسفل خط عرض ٢٦ إذا أخذنا في الاعتبار موقعها النسبي من ودان وزويله .

وأخيراً إذا سلمنا بأن فزان هي بلاد الجرمنت (Garamantes) إذ لا أستطيع أن أجد مكاناً آخر لهم طبقاً للتقارير القديمة . فانه طبقاً لما أورده سترابو (Strabo) صفحة ٨٣٥ نجدها تبعد عن ساحل البحر بحوالي تسعة أو عشرة أيام . وهي تتفق تماماً مع موقع العاصمة القديمة .

ويؤكد بليني المعلومات السابـــقة وهو يحدد موطن الجرمنت خلف المونز آتر (Mons Atr) ويقصد بها المنطقة الصحراوية السوداء التي تقـــع بين فزان ومصراته .

والجدير بالذكر ان الاختلاف في تحديد موقع مرزق وهو حوالي ٣٩ ميلاً جنوب شرقي موقعها في الخريطة المنشورة عام ١٧٩٨ لا يؤثر على المسافة التي تفصلها عن تمبكتو .

الجزء الثاني

ملاحظات عامة حول بعض البلدان

سأوالي في هـــذا الفصل تقديم بعض الملاحظات الجغرافية وبعض الملاحظات العامة لبعض النقاط التي فرضت نفسها من خلال رحلة السيد هورنمان مثل :

١) بحر بلا ماء ووادي موجابرا ٢) سيوه
٣) الواحات الصغرى . ٤) وادي شياشت وجنبوت
٥) أوجله ٦) الهاروج
٧) فزان وغدامس .

١) بحر بلا ماء (Bahr - bela - ma) ووادي موجابرا .

ان لفظ بحر يقصد بها بالعربية أي مورد للمياه ، سواء أكان نهراً أم بحراً أو بحيرة ، ويقصد ببحر بلا ماء المكان الذي يفترض أن يوجد به ماء ، وبمعنى آخر ان البحر أو البحيرة أو النهر بدون ماء . أما في استخدامها الحالي فيقصد بها انها كانت مجرى قديماً لنهر وهذا النهر هو نهر النيل والذي يفترضون أنه تحول عن مجراه الحالي عند بني سويف ومر خلال منطقة الفيوم ، وأن بحـــيرة قارون التقت بالبحر عند خليج العرب (Gulf of the Arabs) ولن أقول هنا بصدد هذا الرأي سوى

أنه منذ ظهوره يحمل مظاهر ضعفه والرأي يقول انه في الأونة القديمة كان مجرى النيل منخفضاً عن أقليم الفيوم ومما لا شك فيه ان منطقة سقارة (Sakkara) ما زالت أعلى من مستوى النيل .

ولقد القت ملاحظات السيد هورنمان ضـــوءاً على قاع النهر وأضافت جديداً الى ملاحظات براون وجنرال اندريس .

ويبدو أن الجنرال براون قد وصل الى وادي النطرون على بعد ٣٢ ميلاً جغرافيا غربي تيرانا (Terané) وربما وجـــد الجنرال بالقرب من الوادي وادياً آخر كبيراً لا يفصله عن وادي النطرون سوى سلسلة ضيقة من الجبال . وهذا الوادي الكبير هو نفسه ما يسميه العرب « بحر بلا ماء » أو البحر الفارغ .

وفي طريق السيد هورنمان غربي القاهرة كان قد مر على وادي النطرون على مسافة ٤٠ ميلاً جغرافيا من القاهرة ، وليس أكـــثر من تسعة أو عشرة أميال للجزء الجنوبي الذي رآه جنرال أندرويسي وبعد ثمانية أميال من وادي النطرون هبط ما أسماه « سفح تل رملي » ولما كان الوقت مساء لم يستطع أن يكون فكرة عن المكان أو الاماكن المجاورة . وقد لاحظ على أية حال أنه من الأنسب أن يدرس الرحالة هذا المكان ربما لأنه وجد المنخفض عميقاً ومنحوتا .

ولننتقل الآن الى وصف الجنرال حين قال « انهم هبطوا التل الرملي بصعوبة بالغة اذ كان الانحدار قاصياً ، وتركوا المكان ليلاً ولم يستطع أن يكون فكرة عن طبيعة المكان فقط وانما لفت انتباه الآخرين .

وربما يمكن أن يقال أن « بحر بلا ماء » ووادي النطرون يمتدان أربعين ميلا جغرافياً أو أكثر شمال بحيرة مريوط (خليج العرب) وفي اتجـاه بحيرة قارون حيث تقصر المسافة إلى أقل من ثلاثين ميلاً .

وكان الزمن الذي استغرق في الوصول من وادي النطرون الى سفح التل الرملي – وهو أربع ساعات ، وقتاً معقولا . فان عرض وادي النطرون ٦١/٢ ميلاً جغرافيا وقيل أنه استغرق ١/٤ ٣ ساعة في الصعود غرباً . وذكر جنرال اندريس أنهم قضوا أربعين دقيقة في هبوط المنحدر حتى قاع بحر بلا ماء ، وعليه فان مجموع الزمنين اللذين استغرقا في صعود المنحنى والهبوط أسفل التل هو أربع ساعات . ويبدو ان السيد دانفيل كان يعتقد في وجود واد كبير يمتد طول الطريق من بحيرة قارون حتى بحيرة مريوط وقد أوضح ذلك في خريطته . ويبدو أنه لم يكن لديه فرصة التحقق من ذلك .

وفيما يلي سأقوم بعرض بعض المعلومات عن واد آخر ربما يكون فرعاً « لبحر بلا ماء » .

وادي موجارا :

ذكر هورنمان أنه « بعد أن ترك سفح التل الرملي ، دخل الصحراء التي يمكن اعتبارها حدوداً طبيعية لمصر ، وتمتد هذه الصحراء أكثر من ١٥٠ ميلاً جغرافياً من الشمال إلى الغرب ، أما من ناحية الجنوب فلا يعرف أحد مداها ، وربما امتدت حتى الواحات الصغرى . ولم يدر هورنمان إن كانت هذه الصحراء هي التي تمتد مسافة اثنتي عشرة رحلة فلم يكن لديه فرصة التحقق من ذلك كما أنه لم يعرف طريق تلال « أم صغير » جنوباً .

وتنبسط الصحراء مستوية تغطيها رمال متناهية الصغر ، يحدها شمالاً سلسلة من التلال الكلسية ، وتمتد شرقاً وغرباً حتى تملأ الأفق وتعلو التلال وتبعد عما يقال أنه امتداد « لبحر بلا ماء » بمسافة قدرها سبع رحلات

وعرض هذه المنطقة من ميل الى ستة أميال ، يشاهد بها مياه راكدة في بعض المواسم ولكن عندما زارها هورنمان لم يكن بهـــا سوى بعض البحيرات الصغيرة على مسافات متباعدة ، وتنتشر في أماكن عـــدة بعض المناطق المستنقعية وتمتد لمدة أميال .

ومياه هذه المنطقة « مرة المذاق » ولكن توجد مياه حلوة على عمق أربعة أو ستة أقدام .

وبالرغم من أن القوافل تفضل الطرق الرملية التي تلائم الجمـال إلا أنها — في هذه المنطقة — تمشي بحذاء الوادي حتى توفر الماء اللازم لها .

ولا نعرف بالضبط إذا كان هذا الوادي يمتد غرباً ، حتى يلتقي بتلال « أم الصغير » والتي تشكل سلسلة من التلال الكلسية التي تعرضنا إليها من قبل ، أو أنه يتصل بوديان الواحات الصغرى أو الكبرى . وتتماثل طبيعة هذا الوادي مع الوديان التي توجد عند سفح التلال العالية .

ويلاحظ أن المناطق المرتفعة للتلال تبدو مواجهة لناحيـــة الجنوب والغرب . وعلى أية حال فان وادي موجارا يختلف اختلافاً بائناً عن الوديان التي تتكون منها الواحات بالرغم من أنـــه يبدو مماثلا لوديان شياشة حيث لا يوجد عيون ماء .

لقد تعلمنا دروساً مشوقة من الجنرال « أندرويسي »(Andreossy)حينما تكلم عن بحر بلا ماء فقد ذكر لنا في مذكراته عن مصر Mém. sur L ‘ Egypte صفحة ٢٤٦ ، أن أهل « تيرانا » يستوردون (Rusbes) وهو نبات يستخدم لصنع الكراسي والبسط من واد يبعـد ثلاثة أيام خلف « بحر بلا ماء » ويصنعون منه الأبسطة في « منوف » أحد بلاد الدلتا . وافترض الجنرال اندرويسي أن هذا المكان امتداد « لبحر بلا ماء » . وربما كان وادي موجارا فرعاً له وينفصل عنه في مكان قريب للمنطقة التي عبرها هورنمان

وليجوز أن يكون هــذا المكان الذي ذكره الجنرال يقع قريباً من بيلجورادك (Biljoradek) في منطقة من المناطق المستنقعية التي تعرضنا لها من قبل . وربما كان يقصد به ذلك المكان الذي يبعد ثلاثة أيام من تيرانا والقريب من موجارا .

ان وصف الجنرال « لبحر بلا مــاء » لجدير بالاهتمام ولكن يصعب عرضه هنا نظراً لطوله ، والجدير بالذكر أنه وجد به أخشاباً متحجرة كالتي وجدها هورغان بالقرب من الصحراء الرملية .

ولقد لاحظ الاثنان أن النماذج التي وجدت لا تحمل أي أثر يدل على أنها كانت تستعمل كأداة معينة كما تصور البعض وذهبوا إلى القول بأن هذه المنطقة كانت مجرى قديماً للنيل قبل بناء ممفيس (Memphis) .

ولا شك أن « بحر بلا ماء » يشبه إلى حد بعيد مجرى مــاء اسود من حيث شكله أو من حيث وجود البلور الحجري في قاعه ولكن أين الماء الذي يمكن أن يكون قد أحدث هذا التجويف !؟ ولقد وصفه الجنرال بأن عرضه ما يقرب من تسعة أميال وانه ذو عمق كبير في حين أن النيل لم يبلغ عرضه في أي وقت من الأوقات ميلا واحداً .

ماذا كان شكل الأشياء في التاريخ ، اننا لا نكاد نعرف شيئاً ، لكن ما لدينا من معلومات تاريخية يفيد بأن النيل كان فيما مضى أكبر حجماً مما هو عليه الآن .

وليس هذا فقط محل الغرابــة ، فإن اقليم الفيوم يفصل عن وادي النيل سلسلة من تلال تشكل في حد ذاتها الحائط الغربي لمصر . وأن الطريق الذي يؤدي إلى بحيرة قارون عــن طريق إلاهون وهوارا

(Yilahon and Hawara) يبدو أنه مصنوع ومن فعل الأنسان . إذ لا يمكن أن نتصور أن هذا الطريق كان مجرى النيل الذي يربط مصر العليا « ببحر بلا ماء » نظراً لضيقه .

وعلى أية حال فإن فكرة أن للنيل فرعاً من ناحية الغرب أو أنه كان يجري ما بين بحيرة قارون و « بحر بلا ماء » أصبحت الآن فكرة تاريخية . لأنه حتى إذا أسلمنا بها ، فان المنخفض الذي توجد به الفيوم وكذا بحيرة قارون لا بد وأن ننظر اليـــه على أنه طريق مسدود إلى « بحر بلا ماء » نظراً لوجود تلال إلاهون ، وعليه فانه يمكن القول بأن بحيرة مرويس (Moeris) الشهيرة التي تشكل هذه الأيام لغزاً بـــين المثقفين ربما كانت نتيجة مجهود انساني قام بازاحة جزء من الحائط الغربي لمصر وترك المياه تنساب الى المنخفض الذي يضم الآن بحيرة قــارون ، ولكن اذا كان للنيل أراضي تكونت بعد انحسار مياهه بالقرب مـــن خليج العرب ، فلا بد أن تكون هناك بعض آثارها باقية سواء على طول الشاطىء أو في البحر نفسه .

ويمكن القول بأنه توجد وديان أو منخفضات أخرى على طول مجرى النيل بمساحات تماثل مساحة منخفض الفيوم .

وليس خروجاً عن الموضوع أن نكرر مـــا قيل في مناسبة أخرى من أنه بالرغم من أن النيل يتدفق هذه الأيام الى بحيرة قارون وذلك حينما يكون الفيضان عاليا . فلا بد أن يكون هناك وقت ما كان فيه قاع النيل منخفضاً لدرجة لا تصل معه المياه الى البحيرة . مما لاشك فيه أن قاع النيل ارتفع تدريجياً عبر السنين بفعل الطمي الذي يترسب به ، وبالتالي فان أراضي الدلتا الناتئة في البحر ستستمر في الامتداد والتزايد .

وقد عالج جنرال اندرويسي حركة الرمال في ليبيا تجاه الشرق ناحية

« بحر بلا ماء » في مذكراته ص ٢٤٧ ، كما لاحظ السيد هورنمان وجود عوائق من التلال الرملية على طول الطريق . وهناك أيضاً بعض التلال صغيرة الحجم تكونت بفعل تراكم الرمال حول أشجار البلح ، الى حد أنه لا تظهر منها سوى أغصانها العالية .

٢ - سيوه :

ان موقع سيوه - ذلك المكان الشهير - لم يعد محلاً للتساؤل ، منذ أن وصلت الينا معلومات السيدين براون وهورنمان إلى جانب المعلومات المستقاة من أهل سيوه أنفسهم ، خصوصاً فيما يتعلق بموقعها النسبي من القاهرة ، الواحات ، ودرنه ، على الرغم من اختلاف هذه المصادر في تحديد خط الطول الذي تقع عليه .

ان معلومات السيد هورنمان لا تقل أهمية عما ذكره براون من أن سيوه كانت واحة آمون ، وأن الآثار المصرية الموجودة بها هي بقايا المعبد الشهير بمعبد الاله جوبيتر . فبالاضافة الى وجود ما يعتقد أنه البناء الداخلي للمعبد ، فقد شاهد هورنمان البناء الذي أشار اليه براون ويبلغ محيطه بضع مئات من الخطوات ، وهناك أيضاً بعض بقايا حوائط المعبد الى جانب مواد بناء ربما تكفي لمدينة تسع ستة أو سبعة آلاف نسمة .

ولا يجب أن يبعث اختفاء المعبد والقصر الذي ذكره الأولون ، أي مجال للشك ، فان معظم الملاحظات تتفق مع الأوصاف القديمة وخصوصاً من ناحية الأبعاد ، والاتفاق أيضاً على الموقع الجغرافي والعيون الغزيرة المتوفرة بها ، وكذا خصوبة التربة وأخيراً ما ذكره السكان من أنه لاتوجد أي بقعة أخرى خصبة بالقرب من الواحات الصغرى .

على أن هناك دليلاً آخر يوحي بأن المكان كان آهلا بالسكان وغنياً بالموارد ويتضح ذلك في المقابر العديدة التي أشار اليها وزارها كل من

هورنمان وبراون الى جانب المقابر التي يقال ان المدن الحديثة بنيت عليها ، ويوجد عديد من هذه المقابر في « أم الصغير » والتي يعتقد بالرغم من بؤس حالها هذه الأيام أنها كانت ضاحية مزدهرة لآمون .

على أنه توجد مساجلة تستحق المناقشة ، فقد اختلف هورنمان اختلافاً كبيراً مع براون في تقديره لمساحة سيوه ، إذ قدرها براون بستة أميال في أربعة في حين أن هورنمان ذكر أن محيطها خمسون ميلاً ، فقد قال هورنمان : « منطقة خصبة يبلغ محيطها خمسين ميلاً ويحيطها صخور عالية عارية » . وقد ذكر أبو الفداء أيضاً ان المنطقة محاطة بالتلال . وربما قصد هورنمان في تقديره المكان كله بما فيه التلال ، في حين أن براون كان يقصد بأرقامه المنطقة الخصبة فقط . ولا بد أن نقرر أن ما ذكره براون يطابق ما ردده الأوائل .

وقد ذكر هورنمان أن مياه الينابيع تستخدم في ري الحدائق والحقول ومعنى ذلك أنه لا توجد أنهار في هذه المنطقه ، في حين أن « أبو الفداء » وصف نهراً يسمى « كستارا » على بعد ثماني رحلات من « بهنسا Bahnasa » في الواحات الصغرى ناحية فزان . وهي تساوي نفس المسافة من سيوه إلى القاهرة وهي خمسة عشر يوماً ، وبمعدل ١٩ يوماً لليوم الواحد فان المسافة تقدر بـ ٢٨٥ ميلاً .

وطبقاً لما ذكره هورنمان عن العيون الوفيرة في سيوه فان واحدة منها — كما قال — تبدو كما لو كانت نهراً صغيراً وأخرى كأنها عدة أنهار ، ويعتقد أن بعضاً من هذه المياه كان يتدفق لمسافة كبيرة قبل أن تتسرب المياه ، وربما كان نهر كستارا (Castra) ينبع من احدى هذه العيون .

ان وصف هورنمان لسيوه ووصف براون للواحات الكبرى يعطي

الانطباع بأنها من طبيعة متماثلة فكل منهما يضم ينابيعاً وافرة وأراضي خصبة تناسب الرعي والزراعة .

وينطبق ذات الوصف على الواحات الصغرى ولو أن تربتها أقـل خصوبة ، ويعتقـد أن وادي موجارا – بمياهه الحلوة على عمق أربعة أقدام – يتمتع بنفس الخصائص .

٣ – الواحات الصغرى .

علم السيد هورنمان أنه على مسافة سبع رحـلات من سيوه وخمس من الفيوم وبالقرب من بلجرادك (Biljaradek) ، ويوجد اقليم مشابه لسيوه ، ويتكلم سكانه – وان كانوا أقل عدداً – نفس لغة سيوه . وقد اعتبرها هورنمان جزءاً من الواحات الصغرى التي كان يسكنها وربما كان الحدّ الشمالي وذلك نظراً لموقعها .

ومن خـلال الوصف السابق يمكننا القول ان المكان يقع عـلى خط عرض ٥٠ ٢٨ وفي منتصف الطريق تقريباً من القاهرة الى سيوه وعلى بعد ٨٩ ميلاً من بهنسه غرباً بالقرب من بحر يوسف . وقـد حدد بطليموس الواحات الصغرى بخط العرض ٤٥ ٢٨ وعلى مسافـة ٧٥ ميلا غربي (Oxyrinchus) أو بهنسه كما تسمى الآن ، وعليه فان هناك اتفاقاً بين الحسابات القديمة والحديثة .

وكانت (الواحة الغربية) تقع على مسافة أربعين ميلا إلى الشمال وعليه فان مساحة الواحة الصغرى لا بد وان تمتد أكثر من مائة ميل من الشمال الى الجنوب وهذا أكبر من تقديرنا لما يسمى بالواحة الكبرى ، ولهذا يحتمل أن لفظي صغرى وكبرى ربما يقصد بهما نوع التربـة وليس المساحة .

وقد وصف السيد براون الواحة الكبرى بعد أن زارها فقال انها تتكون من واحات كبيرة مثل سيوه وتمتد على هيئة سلسلة من الشمال إلى الجنوب يفصل ما بينها بقاع صحراوية تتراوح ما بين سفر ساعتين وأربع عشرة ساعة . ولا تختلف الواحة الصغرى عن الواحات الأخرى ، وان كانت أقل جودة منها ، وأقل بدرجة ملحوظة من سيوه (أنظر جغرافية هيرودوت جزء ٢٠ و ٢١) وقال براون ان الواحة الصغرى تشبه عاصمة للعرب الذين يسكنون الغرب وهم يمرون خلالها ليصلوا أقصى الطرف الغربي لبحيرة قارون (ص ١٣٢ و ١٧٠) .

والى هنا فنحن نعتقد ان الرحـــالة المحدثين قد استطاعوا أن يكوّنوا فكرة عرضية عن جغرافية وموقع الواحات الثلاث وان كنا بحاجة إلى تصحيح موقع احدى واحاتها الشمالية . وكذا تصحيح عدد وموقع « الجزر » التي تضمها .

٤ – وادي شياشه والجغبوب (Valleys of Schiacha , and Gegabib)

وصل السيد هورنمان الى شياشة بعد رحلة ثلاثة أيام غربي سيوه وهي واد خصيب يقع الى اليمين . وتنتشر المستنقعات في أراضيه . وبعد مسيرة ست ساعات من شياشة بلغوا « ترفـو » (Torfaue) حيث حصلت القافلة على مياه للشرب . وعلاوة على ذلك ففي الطريق من سيوه شاهد هورنمان عند سفح أحد التلال بحيرة تمتد لعدة أميال وذات مياه حلوة .

وقد لاحظ هورنمان أنهم عندما سافروا من سيوه كانت تصاحبهم سلسلة من التلال وكانت استمراراً للتلال التي كانت تبدو لهم شمال مسارهم وسط الصحراء . كانت هذه التلال ترتفع فجـــأة من السطح دون

انحدار ، وهي تبدو عارية من الرمال أو من أي غطاء آخر .

وربما يعن لأحدهم أن يستنتج أن الوادي الذي يقع عند سفح هذه التلال يشبه الى حـــد بعيد طبيعة وادي موجارا (Mogara) ويبدو أن هورنمان اعتبر التلال التي تنتصب طول الطريق من « بحر بلا مـاء » حتى شياشة ماهي الا امتداد لسلسلة واحدة - على أن هذا القول يفتقر الى الدليل .

ان وادي جغبوب الشهير والذي يشتهر بنخله لا بد وأن يكون قريباً من شياشة وترفو ، فقد ذكر براون في كتابه ص ٢٦ أنـه عندما سار مسافة رحلتين شمال غرب سيوه كان قريباً من جغبوب . ولقـــد وصفه « بيوفوي » (Beaufoy) بناء على ما ذكره (بن علي) انه واد ضيق رملي ، وغير آهل بالسكان ويزخر « بالنخيل » وأضاف أن هـــذا النخيل يجمعه أهل « دونا » (Duna) على مسافة ثماني رحلات .

وما دام السيد هورنمان لم يلحظ اشجار البلح خلال طريقة من سيوه الى أوجله فلا بد أن طريقة كان أكثر اتساعاً من وادي جغبوب وأغلب الظن أنه يقع الى الجنوب منه .

ويطابق هذا القول ما ذهب اليه بن علي في وصفه للطريق من أوجله الى سيوه والذي يقع عبر جبال « قرطبه » . (Gerdoba) « كروبـا » حتى وادي الجغبوب .

٥ - أوجله (Augila)

تقع أوجله الشهيرة الصغيرة الرقعـــة ، في منتصف الطريق ما بين مصر وفزان وعلى بعد ١٧٠ ميلاً من أقرب بناء على ساحل البحر المتوسط .

وتمتلك أوجله معظم خصائص الواحة ، فهي منبسطة خصبة وفيرة

المياه ، تلفها صحراء جدباء رملية أو صخرية وعلى الاخص ناحية الغرب فهي تفتقر الى الكلأ لدرجة ان جمال قافلة هورنمان كانت تحمل المؤن معها . وتمتد أوجله من الشرق إلى الغرب لمسافة تقل عن رحلة يوم كامل .

ويهتم أهل اوجله بزراعة الحدائق أكثر من اهتمامهم بزراعة المحاصيل ، ولم يذكر هورنمان شيئاً عن زراعة النخيل الذي اشتهرت به أوجله قديماً وحديثاً .

ويبدو أن رجال اوجله يشتغلون بالتجارة ما بين مصر وفزان : فموقعهم المتوسط وسهولة المواصلات بينها وبين ميناء بنغازي يعطيهم ميزة نسبية . ويعمل أهل عاصمة أوجله الزاخرة بالسكان (موجابرا Mojabra) بالتجارة ، وقد فرق السيد هورنمان بين التجار وبين سكان المدن الذين يعملون بالزراعة . ورأينا باختصار كيف تؤثر مهنة السكان في عاداتهم وتقاليدهم . وبالرغم من المركز التجاري لأوجله فهي ما زالت مكاناً فقيراً . والجدير بالذكر أن أوجله من البلاد القلائل في افريقيا التي احتفظت باسمها القديم حتى الآن .

٦ – الهاروج الأبيض والأسود The Harutsch . White and Black

لقد تعرضنا للحديث عن هذه الجبال الشهيرة من قبل ، وتحدث « بن علي » بصددها إلى السيد بيفوي وقد سجل الأخير ملاحظاته عنها (في الجزء العاشر لمنشورات الجمعية الأفريقية سنة ١٧٩٠) يومذاك وصفت جبال الباروج السوداء بأنها تمتد لمسافة أربعة أيام ، ووصفت الباروج البيضاء بأنها صخور رملية نافعه تمتد لمسافة ثلاثة أيام . وجاء هذا الوصف غامضاً وكان تحديد موقعها خاطئاً .

وواضح أن السيد هورنمان قـــد أمضى ما يقارب من خمسين ساعة في عبور جبال الهاروج السوداء وأربع عشرة ساعـة أخرى في عبور الهاروج البيضاء ؛ أي أن عبورهما معاً استغرق أربعاً وستين ساعة ، وهـذا ما يعادل ستة أيام . وهذا التقدير لا يختلف كثيراً عما ذكره « بن علي » فقد قرر أن المسافة سبعة أيام .

ان جبال الهاروج البيضاء تشكل حدود فزان ، وتمتد جنوباً حتى منطقة التيبو رشاد (Tibbo Rshade) . أما جبال الهاروج السوداء فانها تبدو أكثر مساحة من سابقتها ، فقد علم هورنمان أن عرضها يمتد لمسافة خمس رحلات من الشرق إلى الغرب (عبرها هورنمان متجهاً إلى جنوب جنوب الغرب) . ويمتد طولها مسافة سبع رحلات أخرى من الشمال الى الجنوب) .

وقد لاحظ هورنمان أنها لا بد وان تكون ذات رقعة أكبر ، فقد عبر منطقة مشابهة في طريقه من فزان إلى طرابلس وعـلم أنها تمتد إلى مساحة كبيرة غرباً . وأضاف هورنمان أنه علم في « مرزق » أن هناك جبالاً سوداء على الطريق من مرزق إلى بورنو أي إلى الجنوب الشرقي .

وقد علم بيوفوي (أنظر الجزء الرابع الجمعية الأفريقية ١٧٩٠) أن جبالاً تسمى « سودا » تتقاطع مع الطريق من مصراته الى فزان وهذا يتفق مع ما ذكره هورنمان من أن طولها أربعـــة أيام من الشمال الى الجنوب .

وقد وصف السيد هورنمان جبال الهاروج السوداء بأنها تتكون من مادة بركانية أو مادة تعرضت للنار ، وتبدو بتكوينها شاذة وفريدة في نوعها .

وقد ورد ذكر هذه الجبال في كتابات « بليني » (Pliny) مما يدل على انها كانت موجودة في عهد الرومان ، فقد ذكر انهم عبروها في طريقهم إلى فزان ونيجر وحدد بالفعل أقصر الطرق عبر هذه الجبال .

وقال بليني أنه ابتداء من غدامس يمتد أحـــد الجبال مسافة طويلة إلى الشرق أطلق عليـــه الرومان اسم مونزآتر (Mons ater) ويبدو هذا الجبل كأن أشعة الشمس قـد أحرقته (Lib V. C. 5) وأضاف بليني قائلاً أنه خلف هذهالجبال تمتد الصحراء ومن الجرمنت(Garamantes) التي هزمت على يد الرومان بقيادة بالبوس Balbus .

ومن خلال هذا الوصف يبدو أن الهاروج السوداء توجد شمال فزان وكما لاحظ هورنمان فهي تمتد إلى الشرق أيضاً وعلم أنهـــا تمتد غرباً تجاه غدامس .

أما سوكنا فهي مدينة لها أهميتها وتقع في المنتصف ما بين هـــذا الطريق وغدامس ، ويعرف أن الهاروج السوداء تمر جنوبها ، وعليـه فان مجال الشك ضعيف في أن (Mons Ater) تمتد غرباً حتى غدامس وإلى مسافات أبعد إلى شرقها .

٧ – فزان

قيل انه ليس هناك فرق يذكر ما بـــين موقع عاصمة هذا الاقليم (مرزق) كما حددها هورنمـــان وكما حددت افتراضاً على الخرائط التي نشرتها الجمعية الأفريقية في سنتي ١٧٩٠ و ١٧٩٨ ، ولهذا السبب فلم أغير مكانها على الخريطة العامة . أما في خريطة هورنمان فقـد وضعت بناء على ملاحظاته .

وبالرغم من أن هورنمان قام بجمع معلومات عن فزان نقلاً عن الرواة

فهي تتفق مع المعلومات التي توفر عليها بيوفوي والتي قام بجمعها من الميدان .

فقد ذكر هورنمان ان المنطقة المزروعة من فزان يبلغ طولها ٣٠٠ ميل بريطاني من الشمال إلى الجنوب وعرضها ٢٠٠ ميل من الشرق إلى الغرب . وتتفق هذه التقديرات مع ما ذهب اليه بيوفوي من الناحية المساحية إلا أنها تختلف من حيث الشكل ، فقد ذكر بيوفوي أنها دائرية الشكل بينما ذكر هورنمان أنها بيضاوية . ويبدو أن كلا من هورنمان وبيوفوي قد اعتبرا هذه المنطقة أرضاً زراعية على أنه ليس لدينا أية معلومات جغرافية لنعرض تفاصيلا أكثر .

وقد وصل السيد هورنمان حدود فزان الشرقية بعد سفر ٤٤ أو ٤٥ ساعة من مرزق أي ما يساوي ١١٠ أميال جغرافية .

ومعنى هذا أن مرزق يجب أن تكون في المنتصف بين الحدود الشرقية والغربية في حين أن السيد بيوفوي أوضح أن الأقليم لا يمتد بعيداً غرب العاصمة .

وقد ذكر بيوفوي أنه أمضى خمسة أيام ما بين الحدود الشمالية عند حافة الصحراء السوداء ومرزق وهذا يعادل مائة ميل بريطاني . ومن مرزق حتى جبال آير (Eyre) جنوباً أربعة عشر يوماً ويصل المجموع بذلك الى ٣٨٠ ميلاً وربما ٣٥٠ ميلا جغرافياً على أنه توجد في المنتصف صحراء يبلغ عرضها خمسة أيام ولكننا لا ندري أين حددها هورنمان .

وقد بين هورنمان أن أقاليم الهاروج وودان وسوكنا تتبع فزان وكلها تقع خلف الهاروج ، وعلى أن سوكنا تعتبر من الأماكن الهامة فأهلها يقومون بتجارة واسعة بين فزان وطرابلس .

وقد علم السيد هورنمان أن في فزان ١٠١ مكاناً آهلا بالسكان ،

وواضح أن هذا الرقم هو نفس الرقم الذي ورد بخريطة السيد « دبلسيل » عن أفريقيا عام ١٧٠٧ .

أما السيد بيوفوي فقد ذكر أن عددها أقل قليلاً من مائة . على أن هناك عدداً قليلاً من هـذه الأماكن يتصف بالأهمية وما زال عدد كبير منها لا نعرف موقعه .

وتختلف المعلومات التي ذكرها هورنمان بهذا الخصوص عما ذكره بيوفوي.

أما فيما يتعلق بمرزق عاصمة فزان ، فقد تحدثت عنها بما فيه الكفاية .

وبالنسبة لزويله (Zuila) فانهـا تقع طبقـاً لمسار هورنمان على بعد ٥١ ميلاً جغرافياً شرقي مرزق وقد علم بيوفوي أنهـا تبعد مسافة سبعة أيام باتجـاه يختلف ما بين الشرق وشرق شمال الشرق . وذكر هورنمان أن زويله كانت عاصمة فزان أيام الأدريسي ، ولهذا فان بعضاً من أجوار فزان من ما زالوا يطلقون عليها إسم زيلا .

وتعد تمسة من البلدان الرئيسية وقد حدد هورنمان موقعها بسبع ساعات شرقي زويله . ويبدو أن تمسة هي نفسها (تمشة) كما وردت بكتابات الادريسي والتي تبعد أربعين رحلة من القاهرة .

وقد حدد بيوفوي موقـع (جرمه) بأنهـا جنوبي (زويله) وفي منتصف الطريق تقريباً بينها وبـين مرزق . وجورما بلا شك هي (Garama) الرومانية عاصمـة فزان أو (Phazania) أو كما كانت تسمى في عهد الرومان ، وإليها يرجع إطلاق إسم الجرمنت على الاقليم كله .

أما هورنمان فقد أسماها يرما وحدد مكانهـا إلى الغرب من العاصمة وعلى أية حال فقد أوردها دانفيل تحت اسم (فرما) وحدد موقعها جنوب غرب (تساو) وهي تقع بين البلدين وهذا هو نفس تقدير بيوفوي .

والجدير بالذكر أن دانفيل قد حـدد أماكن هذه البلدان خاطئاً إلى جنوب شرق مرزق بالرغم من أنه يعرف أن (جرما) هي عاصمـة الجرمنت متناسياً أن جرما تقع ضمن اقليم فزان .

وحدد بيوفوي (قطرون) بأنهـا تقع جنوب شرق العاصمة وعلى مسافة ستين ميلاً وهي ما أسماها (جاترون) وقد حددها إلى الجنوب منها . في حين أسماها دانفيل (كاترون) وحـدد موقعها إلى جنوب جنوب الغرب على مسافة ٧٥ ميلاً جغرافياً .

وحين وصف هورنمان طريق القوافل من فزان إلى برجو ذكر أن (جاترون) تقع غربي مرزق وعلى بعد ٥٤ ميلا منها وذلك في الطريق إلى (تغري) والتي تقع طبقاً لمختلف التقديرات إلى جنوب الغرب من مرزق ، ولعله خمن أن (كاترون) تقع إلى الجنوب بـدلاً من جنوب الشرق . ويختلف تقدير هورنمان للمسافة عن تقدير بيوفوي اختلافاً طفيفـاً . ويبدو أن دانفيل لم يكن لديه مثل ما لدى السيدين هورنمان وبيوفوي من معلومات فيما يتعلق بالمسافة .

أما بالنسبة « لمندرا » فهي تقع طبقاً لتقدير بيوفوي على مسافة ٦٠ ميلا إلى جنوب العاصمة تقريباً بينما نجد أن هذا هو موقع (كاترون) طبقاً لتقديرات هورنمان وعليه فان مدينة « ميندرا » يجب أن تكون في موقع آخر ، وربما يجب ان تتبـادل موقعها مع كاترون في وصف السيد بيوفوي .

ولقد أوضح بيوفري أن « تغري » تقع أقصى الغرب من فزان وعلى مسافة ٨٠ ميلا جنوب غرب العاصمة ، في حين أن هورنمان قـد حددها بجنوب جنوب الغرب وعلى مسافة ٣٣ ميلاً من كاترون ، وعلى هذا

فان موقع (ثغري) لا بد وان يكون جنوب الغرب وعلى بعد ١١٦ ميلا من مرزق . وعلى الرغم من ان المسافة مبالغ فيها كما هو الحال مع (كاترون) الا أن تحديد الاتجاهات جدير بالاهتمام . وعليه فانا نجد ان متوسط الاتجاه ما بين التقديرات الثلاثة يغطي جنوب ٢٦ الغرب . ومتوسط المسافة يعطي ٦٨ ميلا جغرافياً .

ويظهر على الطريق ما بين تونس وكاشنا مكان يسمى (تايجري) وقد أفاد السيد (Magrah) أنها تقع على بعد خمس عشرة رحلة من غدامس ويبدو أن هذا هو نفس مكان (تغري) في فزان . غير أن مسافة الخمس عشرة رحلة تبدو قصيرة جداً بالنسبة لموقع (تغري) كما أوضحناه سلفاً .

وإذا أصبحت هذه القضية محل تأكيد ، فانها تنهض دليلا للتحقق من صحة موقع مرزق . ويخامرني بعض الشك في أن العاصمة لا بد وأن تقع قليلا إلى الغرب أو شمال الغرب من موقعها الحالي على الخريطة .

وقد ذكرت هنا هذه الحقائق بصفة خاصة ، إذ أنه يحتمل أن يتساءل الجغرافيون المحدثون عما إذا كان طريق القوافل من تونس إلى السودان يمر خلال (تغري) في الطرف الجنوبي لإقليم فزان ، وأعتقد أن الاجابة هي الإيجاب الى جانب أن هناك بعض الخطأ في البناء الجغرافي فيما بين تونس والمواقع الشمالية للمدينة سالفة الذكر مما يجعل من غير المستطاع رسم حدود دقيقة بين فزان وتونس .

ان أحداً لا يستطيع أن يترك موضوع فزان دون أن يتبين أن ملاحظات هورنمان قد أضافت برهاناً جديداً على أن فزان هي التي كان

يقصدها الكتاب الأولون بأنها موطن الجرمنت ، فهو قد أوضح لنا أن الصحراء الصخرية السوداء تمر بين فزان وطرابلس وتمتد غرباً تجاه غدامس وما دام « بليني » قد حدد « مونز آتر » في نفس الموقع وخلفها صحراء ومدن الجرمنت فان هـــذه المدن لا يمكن إلا أن تكون هي مدن فزان .

الجزء الثالث

تعديلات في خرائط شمال افريقيا ـ المنابع البعيدة للنيل ونهايات النيجر ـ بحيرة فيتري

ويعنى هذا الفصل بتعديل جغرافيـــة الجزء الشرقي لشمال أفريقيا ، فمنذ وضعت الخريطة العامة في عام ١٧٩٨ ظهرت حقائق جديدة بعـد أسفار « براون » ولا بد أن نضيف اليها الحقائق التي تمخضت عنهـــا رحلات السيد هورنمان أيضاً . ولسوف تدعم هذه المعلومات بعضها البعض بالنسبة للموضوعات المشتركة .

وبينما تتميز معلومات براون الجغرافية باهتمامها بالناحية الرياضية نجد ملاحظات هورنمان تعنى بالملاحظات العامة .

وكلتا ملاحظات السيدين هورنمان وبراون تستحقان كل تقدير ، فلم يدخر أي منهما وسعا لجمع المعلومات المفيدة بالقدر الذي كانت تسمح به ظروفهما ، ولا بد لنا أن نجد لهما بعض العذر إذا كانت بعض من ملاحظاتهما تفتقر إلى الوضوح والتسلسل المنطقي ، ولنـــا أن نتصور الظروف السيئة التي تلازم أي رحالة أوربي داخل افريقيا .

وتغطي مذكرات براون منطقة تمتد ست عشرة درجة من درجات خطوط العرض من القاهرة حتى دارفور ، بالاضافة إلى معلومـات تغطي

ست درجات أخرى جنوباً بناء على استفسارات من الوطنيين داخل أراضيهم .

وتمتد ملاحظاته ثماني درجات شمال خط الاستواء حيث حدد موقع البحر الأبيض . وامتدت كتاباته لتغطي جنوب وشرق حدود أثيوبيا وغرب وجنوب غرب بورنو وعبر مناطق لم نسمع عنها من قبل في اوربا . وتشمل ملاحظاته كلها أكثر من خمس عشرة درجة من درجات خطوط الطول .

ان المسافة بين القاهرة حتى « النهر الابيض » تقارب ١٣٦٠ ميلا جغرافياً وربما كانت أكثر من ١٤٤٠ ميلا محسوبة من مصب النيل . ويمتد النهر في خط رأسي تقريباً غير انه ينحرف عن النهر الأبيض درجة ونصف جنوب غرب منطقة التقاء النيل بالبحر المتوسط .

وبدأ خط سير براون من أسيوط ومرّ أولاً على الواحات الكبرى ثم خلال ، شيب ، وسليما ، ولفيا ، وبئر الملح في طريقه إلى دارفور. ونظراً لما عرف عن براون من حيطة ودقة فإن المعلومات التي كتبها تستحق كل الاهتمام .

وقد أيدت المعلومات التي جمعها ليديارد وميلات في القاهرة تلك المعلومات المستقاة من براون حول النهر الأبيض . وفيما يتعلق بالأجزاء الأخرى فقد أيدت أقواله التقارير الحديثة التي عرضها هورنمان والادريسي وميلات وبروس .

وليس من الضروري أن ندخل في تفاصيل جغرافية فان أعمال براون قد قرأها الجمهور في كتابه الرائع الذي ضمنه رحلاته والذي أسهم اسهاماً كبيراً في تنمية حصيلتنا الجغرافية ، خصوصاً فيما يتعلق بالنيل الأبيض والمناطق التي لم تكن معروفة عن نهر النيجر .

ومن خلال بعض الخرائط التي رسمها براون بنفسه بناء على ملاحظاته ودراساته ، يتضح لنا أنه قام بمقارنة مختلف المعلومات ، واستطاع بذلك أن يصل إلى نتائج لم يستطعها أحد غيره . وقد استخلصت من ملحق تقريره مواقع بعض الطرق والتي فعل خيراً حينما حذفها من الخريطة .

وبالرغم من موقع التلال الكبيرة « موشو » و « دنجولا » ينبغي أن ينحرف قليلاً الى الجنوب أو الجنوب الغربي وذلك في رسوم « بروس » إلا أن الفرق كان أقل مما كنا نتوقع .

وفيما يتعلق بالمسافة بين « سنار » ودارفور فانا نجد السيد براون يشعر بالرضا لأن معلوماته تتفق مع ملاحظات « بروس » .

وقد حدد دانفيل موقع « سنار » منحرفاً إلى الغرب ما يقارب أربع درجات من خطوط الطول وذلك عما ورد في خريطة عام ١٧٤٩ عن أفريقيا .

وربما يلاحظ أنه من القاهرة ودارفور لا توجد أنهار تتصل بالنيل من ناحية الغرب ، وقد علم براون أن هذه الظاهرة موجودة عند الجنوب ما بين دارفور والنهر الأبيض وعلم أيضاً أن كل الأنهار التي توجد غرب وجنوب غرب دارفور تتجه جميعاً إلى الغرب أو شمال الغرب .

وقد علم براون من أهالي دارفور أن رأس النهر الأبيض تحتوي على عدد من الينابيع تسقط من بعض الجبال العالية تسمى « كمني » وتقع في أقليم « دنجو » وهي على مسافة رحلة شهر من « شيلك » .

وعلى هذا فان أقصى امتداد للنهر الابيض ربما بلغ خمسة واربعين يوماً من « سنار » .

ولقد أفاد بعض العبيد الذين أحضروا في قافـــلة من دارفور إلى القاهرة ، أفادوا أنهم أتوا من مكان يبعد ٥٥ رحلة غربي « سنار » .

وقد اخبرنا براون أن أهل بورجو (بالقرب من دارفور) تعودوا أن يذهبوا في رحلات لصيد العبيد من دونجا .

وذكر أحدهم أن النيل ينبع من الاقليم الذي يسكنه ، ولو افترضنا أنهم يقصدون الطريق الذي يمر عبر دارفور – وهذا أمر محتمل – فإن مسافة ٥٥ يوماً تصبح مقبولة . ان المسافة بين دارفور وسنار تعادل ٢٣ يوماً ، وبالقرب منها توجد مناجم النحـاس في « فيرتت » القريبـة من منبع النيل الأبيض .

وقد حدد منبع النيل الأبيض في خريطة أفريقيـا ١٧٩٨ بـ ١٣٠ ميلاً جنوب شرق المكان الذي حدده براون .

ولقد أثار هورنهان فكرة ارتباط النيل بنهر النيجر ، ولذا أصبح من الضروري أن ندرس بدقة المعلومات الجغرافية التي عرضها السيدان براون وهورنهان وكذا ملاحظات الادريسي حتى نتحقق من هذا الافتراض .

هذا وقد علم هورنهان من أحدهم ممن سافروا إلى دارفور أن النيجر يصب في النيل الأبيض .

ومن المؤكد أن هيرودیت كان قد جمع معلومات مشابهة من مصر بينما نجد أنه من المؤكد أيضاً أن الأفراد الذين سألهم هورنهان في دارفور لم يذكروا شيئاً عن طبيعة الارتباط بين النيجر والنيل ، بل على العكس فقد قالوا ان النهر الأبيض يتكون من منابع تتفجر من الجبال في الجنوب وأن الانهار التي تجري ما بين دارفور وهذه الجبال تمتد ناحية الغرب .

ويجب أن نضيف أن الجبـــال المسماة « قومري » أو « قمر »

يقصد بهـــا كما يفهم من اسمها « جبل القمر » حيث حدد بطليموس والجغرافيون العرب منابع النيل .

ذكرت في الجزء الخامس من « حقائق جغرافية » ١٧٩٨ بعض الحقائق من وجهة نظر معينة توضح احتمال انتهاء نهر النيجر في اقليم (Wangara) وكنت قد اعتزمت بأن أعرض عن هــــذه الفكرة لولا أن كثيراً من هذه الحقائق جاءت لتدعمها آثار بعض الرحالة المحدثين . وسأنتهز هذه المناسبة لأعرض بعض زوايا النقاش حول هذا الموضوع .

لقد علم السيد براون أن هناك عدداً كبيراً من الينابيع يتجه مجراها ناحيـة الغرب والشمال الغربي وذلك في المنطقة التي تمتـد غرب وجنوب غرب دارفور وعلى امتداد مئات عديدة من الأميال ، وكان واضحاً أنه لم يكن واثقاً تمام الثقة فيما يتعلق بكل الأنهار الأخرى ما عدا « مسيلاد » والنهر الصغير المسمى بـ « باتا » بالقرب من سابقه . وهـذا كما أوضح لنا تجري من جنوب الشرق إلى شمال الغرب . أما بالنسبة لاتجاه الأنهار الأخرى فقد قال إن اتجاه الأنهار إذا صح ما سمعته هو من الشرق إلى الغرب . ولكنه أضاف أيضاً بعد ذلك « ان الأقليم الذي تجري خلاله هذه الأنهار رطب ومستنقعي فترة طويلة من العـــام ، ودرجة الحرارة مرتفعة . ويؤكد الوطنيون أنه لا يكون فيه فصل شتاء » . وربما كان النهر الرئيسي بين هذه الانهار أو اقصاها هو النهر المسمى « بحر قولا » وقد اشتق هـــذا الإسم من اسم الاقليم . وقد وصف هذا النهر بأنه يمتلىء بالماء ويتسع حتى يمكن أن تجري به قوارب (تصنع من الأشجار) تسع عشرة أشخاص .

ويتضح لنا (إذا كان براون على صواب ولا أرى ما يـــدعو إلى

الشك في حديثه إذ أنه حريص جداً) أنه ما دامت هذه الأنهار تخترق الأقاليم المرتفعة جنوب دارفور وتهبط في منطقة منخفضة ناحية الغرب ، في نفس المنطقة التي أوضح براون أن بها بحيرتان كبيرتان كما يتضح من خريطته فان هذه المنطقة ذاتها كما يتضح من خريطتنا تقع في منتصف الطريق ما بين رأس النهر الأبيض وأقليم « وانجارا » والتي رسمت طبقاً لمعلومات السيد (الادريسي) وتأيدت – بصفة عامة من أقوان (هورنيان) الذي علم أن « وانجارا » تقع غرب امبراطورية بورنو وعبر اقليم وانجارا يجري أعظم أنهار أفريقيا المسمى بالنيجر ويمكن أن نتلمسه شرق وانجارا . (يبدو أنه من المستحسن أن نذكر هنا أن نذكر هنا أن الادريسي كان يعتقد أن النيجر يجري ناحية الغرب) .

وإذا أخذنا في اعتبارنا غموض وعدم دقة المعلومات التي تصلنا فان أحدا لا يجب أن يدهش إذا اتضح له أن البحيرات والأنهار التي تحدثنا عنها من قبل كانت موجوده في (وانجارا) نفسها . فربما لاحظنا أن المسافة ما بين عاصمة دارفور حتى بحيرات وانجارا تساوي نفس المسافة ما بين دارفور وبحيرتي « حرماد » و « دوي » وأن الاتجاه لا يختلف كثيراً في البوصلة . ولا يجب أن يكون محلا للغرابة أن يختلف وصفان نقل أحدهما الادريسي وردد الآخر أهل دارفور اختلافاً كبيراً عن مواقع البحيرتين والأنهار في الخريطة .

الجزء الرابع

القت ملاحظات هورنمان ضوءاً جديداً على توزيع الأمـــاكن الآهلة بالسكان المجاورة للجزء الصحراوي شرقي تمبكتو والصحراء الليبية .

وتتكون امبراطوريات (بورنو وهاوسا) من ولايات عديدة ، تتقاسم المسافة على طول نهر النيجر من تمبكتو حتى دارفور شرقاً وتمتد لمسافة معقولة الى الشمال خلف مجرى النهر - ويتقاسم بقية المنطقة من الشمال التيبو والطوارق . وتحيط فزان من كل ناحيــة ما عدا الشمال وتقترب من المناطق الملاحية على طول البحر المتوسط من الصحراء القريبــة لمصر حتى المحيط الأطلسي .

ويبدو أن هورنمان هو أول رحالة يحصل على معلومات هامــة عن التيبو والطوارق . ويمتلك التيبو المنطقة الشماليـــة لهذه البقعة الشاسعة ويمتلك الطوارق الجزء الغربي بها . ويفصل ما بينهم من الشمال فزان . وكما أوضح لنا هورنمان فان توطن التيبو بـــدأ في الجنوب والجنوب الشرقي من فزان وامتد شرقــاً الى جنوب الهاروج وصحراء عجيله حتى صحراء ليبيا الواسعة التي تحد مصر غرباً . وتشكل هذه الصحراء الحدود الشرقية للتيبو ، والى الجنوب يعيش بدو رحل في المنطقة ما بين التيبو وامبراطورية بورنو ويعيش في الغرب طوارق آسبن .

وينقسم التيبو الى القبائل الآتية :

(١) رشاد (الصخر) .

(٢) فيبابو .

(٣) بورجو .

(٤) آرنا .

(٥) بيلما (بيلم) .

(٦) التيبو الرحل .

أولا – قبائل التيبو رشاد :

وتمتلك هذه القبيلة الاقليم الذي يقع الى جنوب وجنوب شرق فزان ومدنهم هي (آبو) و (تيبستي) ويمكن ملاحظة البلدان السابقة على الطريق الذي اتخذه هورنمان .

واسم قبيلة رشاد (أو الصخر) مشتقة من منازلهم الصخرية والكهوف التي يعيشون فيها قبل أن يبنوا أكواخاً من أوراق الشجر يقضون فيها شهور الصيف . ويمكن استخلاص بعض الحقائق عن هذه القبيلة من خلال ملاحظات بيوفوي عن الاقليم الذي يقع بين فزان وبورنو (الجزء السادس) وكذا من وصف هورنمان للهاروج الأبيض .

ويؤدي الطريق الذي يبدأ بتمسه بعد مسيرة سبع رحلات الى وادي (تبستي) ويسكن هذا الوادي قوم مسلمون (قبيلة رشـــاد تدين بالاسلام أيضاً) وتؤدي الأربعة أيام الأخيرة من الرحلة الى ما يسمى « تلال صحراوية رملية » كما قال السيد بيوفوي .

وجبال الهاروج الأبيض التي عبرها هورنمان والتي تقع بالقرب من هذه المنطقة تمتد جنوبي أوجلة حتى مرزق فانه من المحتمل أن تكون التلال الصحراوية التي ذكرناها من قبل هي امتداد للهاروج الابيض .

ومـــا يدعم هذا الافتراض ان هورنمان علم أن صحراء سوداء تمتد على

طول الطريق ما بين فزان وبورنو ، وكما أوضحنا من قبل فان الهاروج السوداء تلتقي بالبيضاء ناحية الشمال . وربما كانت هـــذه السلسلة تمتد جنوباً في الاتجاه الذي أخبر هورنمان أن الهاروج السوداء تمتد على طوله خلف المسار الذي سار به .

ولقد وصف هورنمان الجزء التلي من الهاروج الأبيض بأنه يتكون من أحجار كلسية هشة يوجد بهـــا بعض الكائنات المتحجرة ويمكن فصلها بسهولة .

إذاً فليس هناك صخور يمكن أن تحتوي على كهوف طبيعية أو يمكن أن تنحت . وعليه فان هذه المنطقة كما اتضح من الحديث عنـها ومن خلال موقعها يبدو أنها هي موطن تيبو رشاد .

ويمكن أن نستنتج من وصف هيرودوت (١٨٣) أن تيبو رشاد هم ساكنو الكهوف (Ethiopian Trogolodyte) حيث كان يصطادهم الجرمنت ، وفي رأيي أن الجرمنت هم أهـل فزان وهما هم الترجلوديت (ساكني الكهوف) يسكنون بالقرب منهم وهم يتميزون بالرشاقة .

وقد قال هورنمان أن التيبو يتميزون بالرشاقة والخفة ، ولكنه كان يتحدث عن التيبو بصفة عامـــة لا قبيلة بعينها . ومن ناحية أخرى يبدو لنا أنه رأى كثيراً من تيبو رشاد أكثر مما رأى من غيرهم فقد قال : « انهم يذهبون في جماعات إلى فزان » ويحتمل أن يكون قـد عمم ملاحظاته عن تيبو الرشاد على التيبو جميعهم .

ونحب أن نعرض رأياً غريباً لهيرودوت فقد قـــال ان التروجلديت يتكلمون لغة تماثل صرخات الخفافيش .

٢ – فيبابو :

تقطن هذه القبيلة على بعد عشر رحلات جنوب الغرب من أوجله ، في منطقة صحراوية خالية من الماء . ونظراً لقربهم من بنغازي ، فالمسافة لا تتعدى عشرين يوماً ، كانوا معرضين لهجمات أهل بنغازي وأوجله لسرقة البلح والأهالي .

٣ – بورجو :

وهي خلاف (برقو) إحدى ولايات دارفور .

وقد ظهرت في كتابات دانفيل ودلسيل وليو فريكانوس تحت اسم (Berdoa) وربما أخطأ هورنمان في كتابتها .

وتسكن هذه القبيلة على مسافة بضعة أيام جنوب فيبابو .

وهي على مسافة ثمانية عشر يوماً من (تيبستي) وعليه فانه يحتمل أن تقع إلى الجنوب قليلاً من غرب أوجله في موازاة جنوب فزان .

وعلى الرغم من أن هذه المنطقة خصبة – كما يقال – الا أن أهلها يتميزون باللصوصية . فقد تعرضت القافلة التي تسير ما بين « بيجارمي » وبورنو ، وذلك إبان زيارة هورنمان إلى هجماتهم . وقد أرسل اليهم سلطان فزان حملة صغيرة مما يعطي انطباعاً أنهم قليلو العدد أو مشتتون .

وقد أشار السيد بيوفوي في مناسبة أخرى (الجزء الرابع سنة ١٧٩٠) أن تيبو الـ (تيبستي) قد أغاروا على قافلة من فزان ، وتدل الخرائط الجغرافية على أن القوافل المتجهة جنوب الشرق تتعرض لهجمات بورجو ، تيبستي ، في طريقها إلى فزان .

٤ – ارنا :

ويقال أن هـــذه القبيلة تسكن على مسافة خمس أو ست رحلات شرقي (Tibbo) وتحدها صحراء ليبيا ، ويبدو أن السيد هورنمان لم يعرف عن هذه القبيلة سوى اسمها .

٥ – بيلما :

وتعتبر أكبر قبائل التيبو وهم يسكنون منتصف الطريق ما بـــين فزان وبورنو تتاخمهم صحراء (Bilma) والتي يعتقد أنها (Balama) التي ذكرها الادريسي . وهم يعملون بالتجارة مـا بين فزان وبورنو .

وربما يقصد بها (Billa) التي أشار اليها بطليموس ولكنهـــا تقع بعيداً إلى الشرق .

وقد حدد بيوفوي المسافة ما بين قوافل الملح من أجادس حتى بحيرة دمبو والتي تقع في صحراء (Bilma) بخمسة وأربعين يوماً . وبمعدل ١٣ ميلاً جغرافياً تكون المسافة حوالى ٥٨٥ ميلاً بينما تظهر المسافة على الخريطة أقل من ستين ميلا . وعليه فاما أن تكون (أجادس) أبعد ناحية الغرب أو تقع دمبو أبعد ناحية الشرق .

ولدينا دليل يشير إلى أن أجادس تقع بالفعل بعيداً إلى الغرب . فقد علم السيد « Magrah » أنها تقع جنوب خط عرض ٣٠ غرب فزان وشمال « كاشنا » علماً بأن هذا الجزء من الخريطة العامة لم يعتره أي تغيير .

٦ – التيبو الرحل :

وتعيش هذه القبيلة أقصى الجنوب ، وتسكن بحر الغزال الذي عـلم

هورنمان أنه وادٍ طويل خصيب على بعد سبع رحلات شمالي « برجامي » .

ومسافة السبع رحلات شمال برجامي هذه ربما تضع « التيبو الرحل » في امبراطورية بورنو . وعلى أية حال فربما ان لقوافل « التبو الرحل » أكثر من مكان ، تماماً كما هو موجود في بورنو وفارس قديماً وحديثاً . ولهذا فلعل في قولنا أنهم يسكنون أقصى الجنوب مغالطة لأنه قيل ان بحر الغزال في صحراء « بيلما » ونقول أخيراً ان الظباء موجودة بالقرب من جوار دمبو وربما اشتق اسم النهر منهم كما هو الحال في برجاما .

الطوارق

وهم يسكنون المنطقة « الآهلة » من الصحاري الكبرى وهم شعب عظيم – كما قال عنهم هورنمان – متفرق وينقسم الى قبائل عدة ، ويبدو أن هورنمان قد اقتصر في سرده على ما يعرفه عنهم ، ولهذا فقد أفاض في حديثه عن قبائل « كولوفي » وقبائل هاجارا الذين يسكنون بالقرب من فزان ويعملون بالتجارة فيما بينهم وبين السودان وغدامس .

ويعيش طوارق « الكولوفي » في اقليم اجادس وهي تشكل مع الأقاليم المجاورة ولاية تسمى آسبن ، وولاية آسبن تتاخم كاشنا جنوباً وبورنو شرقاً . وأجادس هي عاصمة آسبن وهي تساوي في الحجم – كما قال السيد (Magrah) – ضواحي تونس والتي تشمل الجزء الأكبر منها .

ويظهر لنا من خلال رحلة السيد (Magrah) تجمعات الطوارق في الأماكن الأخرى مثل جازار وتاجازي « جينت » وهذه ليست سوى قرى صغيرة تتبعثر على طول الطريق كما هو الحال بالنسبة للقبائل الأخرى التي تسكن الأقليم ذاته . والجدير بالذكر أن « زنفرة » و « جوبر »

يدفعان الجزية إلى آسبن كل عام .

أما قبيلة « هاجارا » فهي تسكن في أقصى الطرف الشرقي بالقرب من فزان غير أني لا استطيع أن أحدد مكانها على الخريطة . ويحتمل أنهم يسكنون أيضاً « جنات » جنوبي فزان أو « آجاري » وتظهر هذه القبيلة في خرائط (Magrah) في تونس .

وقد ذكر هورنهان أيضاً أن قبيلة « متكرة » وقبيلة « تاجاما » تقطنان ناحية تمبكتو والسودان .

ويقال ان هذه القبائل أكثر بياضاً ، أو أقل سمرة من باقي الأفارقة الذين يسكنون قلب أفريقيا وهم غير مسلمين .

وهذا مما يدعم الفكرة القائلة بأن هناك قبائل مسيحية بيضاء البشرة تسكن بالقرب من تمبكتو .

أما الطوارق الذين يسكنون المناطق الشرقية فهم يعيشون حياة ترحال . ويمكن القول بأن الطوارق أقاموا مستعمرات في سيوه وأوجله وسوكنا - وهي جميعاً نقاط تجارية - وشكلوا سلسلة على طول الحدود الشمالية للصحراء الكبرى تجاه البلاد الساحلية على طول شواطىء البحر الأبيض المتوسط . ويمكن إضافة الواحة الصغرى إلى القائمة السابقة ، فأهلها يتكلمون نفس لغة أهل سيوه .

ومما يدعم هذا القول ما قاله السيد براون من أن الواحة الصغرى تبدو كما لو كانت عاصمة للعرب المغاربة . ويمكن أن نجد بعض الطوارق يسكنون غدامس أيضاً ، ما دمنا نجدهم في أماكن بعيدة عن موطنهم الأم .

ويقول هورنهان ان الطوارق شعب أكثر اثارة من أي من القبائل الأخرى التي تسكن الصحراء ، ولكنه وصف « هاوسا » بالذكاء والاعتدال

وحب الخير بالرغم من أنهم زنوج .

وطبقاً لمعلومات هورنهان فان هاوسا امبراطورية تتكون من عـــدة ولايات صغيرة في افريقيا الشمالية وعليه فان كاشنا أو (Kasna) لا بد وأن تكون ضمن امبراطورية هاوسا فهي ليست سوى بلد صغير .

ويقول هورنهان ان هناك ثلاثة أسماء تطلق على هذه الامبراطورية ، أولها « هاوسا » وهو ما يطلقه سكانهـــا عليها ، ويطلق عليها العرب « السودان » أما أهل بورنو فيسمونها « آسنا » . وأضاف هورنهان يقول ان التسمية الأخيرة يقصد بها اقليمي كاسنا ، كانو وغانا وبعض مناطق هاوسا الشرقية .

ولا بد أن نسجل هنا أن ملاحظات (Magrah) عـن هاوسا ، تتفق مع تقارير هورنهان ولكن ما زال هناك احتمال في وجود مدينة تسمى (Hausa) بالقرب من تمبكتو داخل حدود مـــا يسمى بامبراطورية « هاوسا » وربما كانت ما هي عاصمة الاقليم .

وقد قال السيد (Magrah) ان كل معلوماتي تؤكد أن هاوسا امبراطورية كبيرة وتشمل مناطق رئيسية كثيرة وذكر (سيدي قاسم) ان كاسنا مدينة كبيرة ، وهاوسا اقليم يسكنه الزنوج .

ان الطريق من تونس إلى غدامس يتجه جنوباً ويمتد حتى « هاوسا » (ذكر نفس المصدر أن الخط ما بين فزان وأجادس ينحرف ٣٠ جنوب الغرب) .

ملاحظات عامة

انه مما لا شك فيه أن « الجغرافيا » قد أفادت كثيراً من رحلات السيد هورنمان بالرغم من عدم دقته في عرض مواقع أجزاء كثيرة من طريقه ، كما لم يوضح خطوط العرض التي تقع عليها بعض البلدان الهامة ولم يذكر ايضاً الوقت الذي استغرقه من فزان حتى طرابلس .

ولكن بالرغم من كل هذا فان علينا أن نجد له العذر نظراً للظروف الحرجة التي كانت تحيط به ، إذ كان مطالباً بأن يستمر في أداء الدور الذي رسمه وفي نفس الوقت أن يجتهد في الحصول على معلومات وافية للجمعية .

ولا بد أن نقرر أن هذه الرحلات قدمت أجوبة كثيرة فيما يتعلق بجغرافية أفريقيا وتاريخها الطبيعي وكانت أكثر بكثير مما توقعنا .

وسنشير هنا عدداً من النقاط التي ساهم هورنمان في الاجابة عليها .

أولا – ان الاتجاه العام لنهر النيجر قد حدده السيد بارك واثبت انه من الغرب إلى الشرق بالرغم من أن مكان انتهائه لم يزل غير معروف تماماً .

ثانياً – لقد كان تحديد منابع النيل – في كل العصور – حلماً وأمنية كبيرة . وبالرغم من انه لم تمكن زيارة المواقع نفسها الا انه بناء على معلومات براون وليديارد والجغرافيين العرب أمكن تحديد منابع النيل .

ثالثاً – تحديد مواقع الواحات ، وبقايا معبد الاله جوبتر الذي اكتشفه براون ودعمت آراؤه بملاحظات هورنمان . وأمكن أيضاً تحديد

موقع وحجم الواحات الكبرى والموقع التقريبي للواحات الصغرى .

رابعاً – تحديد موقع الجرمنت بناء على المعلومات التي توفرت لدى الجمعية الأفريقية .

خامساً – حقيقة زهرة اللوتس بعيداً عن الصور الشعرية والخيالية ويرجع الفضل في اكتشافها والتأكد من أن شكلها يوافق ما ردده عنها القدماء ، ويرجع هذا إلى السيد بارك .

سادساً – التأكد من بعض الحقائق التي أثارها بعض الكتاب الأوائل:

١ – أن أهل المناطق الساحلية يقومون برحلات داخل الصحراء لجمع البلح .

٢ – وجود (Mons Ater) التي أشار إليها « بليني » ممثلة في جبال الهاروج .

٣ – تحديد موقع ممفيس بعد أن ظلت لغزاً يحيط به الشك .

٤ – التأكد من وجود استحكامات (Bubastis) في مصر السفلى الوجه البحري) كما أثبتها الفرنسيون .

بالرغم من أن جزءاً فقط من الاكتشافات السابقة قد حققه بعض الذين وظفتهم الجمعية فان الرحالة الذي يرجع اليه الفضل في كثير من الاكتشافات قد أفاد كثيراً من مناقشات الجمعية التي سبقت رحلات براون بعدة أعوام .

فهرست

الجزء الاول

الجزء الثاني

الجزء الثالث

الملاحق